

لقة وعواصف

ابات لأسئلة محيرة

د. مصطفى عبد الغنى

للنشر
والتوزيع

عمالقة وعواصف

إجابات لأسئلة محيرة

الـــكـــتـــاب : عمالقة وعواصف
المـــؤلـــف : د. مصطفي عبدالغني
الـــنـــاشـــر : جهاد للنشر والتوزيع
☎ : ٣٥٦٤٧٨٣
المدير المسئول : محمد نوار
الإخراج الفني : زينب طيبي
الـطـبـعـة : الأولي ١٩٩٨

د. مصطفى عبد الغنى

عمالقة وعواصف

إجابات لأسئلة حائرة

جمال الدين الافغانى: والقومية العربية
عباس العقاد: الصمت وثورة يوليو
عبد الله النديم: الثائر والغرب
طه حسين: والرأى العام
إحسان عبد القدوس: الشارع السياسى
يوسف إدريس: المسألة الاقتصادية
أحمد بهاء الدين: الدولة العصرية
محمد حسنين هيكل: أخطاء «الأستاذ»

قبل القراءة

هـذا عدد مـن الشـخصيات المـعروفـة تحاول أن تجـيب عـن عدد مـن الأسئلة..

عدد مـن الشخصـيات المعروفـة تحاول أن تجيب عـن عدد من الأسئـلة المعلقة ، أو قل، هى أسئلة قديمة لكنها غير معروفة ، ولأنها معلقة ، وغير معـروفة ، فإنهـا ستظل فـى مقام الأسئـلة التى تحـتاج إلى جهـد ودأب لم نحاولهما من قبل

إذن نحن أمام الوضوح فى الأسماء

أسماء الأعلام

وأما الغموض فيما نعرفه عنها

أو من (خطابها) الحقيقى

وهى لهذا تطرح أمامنا عددا كبيرا من الأسئلة ، منها:

- ماذا نعرف ؟

-ولماذا نعرف؟

..

ومجرد طرح هذه الأسئلة يثير أمامنا مفارقة حادة

إنها مفارقة لـم نتعود عليها بالنـسبة إلى عديد من شخصيـات المثقفين فى مصر.

وهو يحتاج إلى توضيح أكثر

فكلنا يعرف ، أو يعتقد أنه يعرف شيئا أوأشياء عن جمال الدين الأفغانى أو عبد الله النديم أو طه حسين.. أوغيرهم .

وكلها أسماء شائعة وتملأ الدنيا- كما قال المتنبى -

والأجدر أن نقول : ومن منا لايعرف الأفغانى والنديم والحكيم وطه حسين ..

الواقع ، أننا رغم هذا كله لانعرف الكثير عنهم

وربما يكون هذا هو السبب الذى يجعلنا الآن نحاول توجيه الاتهام لهذا المفكر أو ذاك ، أو نجد من ينتمى إلى التيار الأصولى أو العقيدى من يتهم التيار الليبرالى أواليسارى .

وربما يكون السبب - كذلك - فى هذه المعارك الوهمية بين مثقفينا ، التى تتخذ أشكالا لا تمت بصلة إلى تقاليد المعرفة ، كما ترتبط بأى شكل بطبيعة القضايا الملحة التى نعيش فيها وتحتاج منا للمعرفة لاالتسرع وعدم الفهم الكافى ..

إن معرفتنا لاتزيد على الملامح العامة ،ربما التى يعيد تشكيل الخطوط فيها المثقف نفسه حسب هواه ، أو حسب ثقافته، أو حسب انتمائه الموجه..

إن المعرفة هنا لاتزيد على ما هو معروف أو شائع

إن الأفغانى هو المثقف الثورى الذى جاء مصر فى سبعينات القرن الماضى فأحدث تأثيرات ما زالت تسرى حتى اليوم ،عبر إعادة تشكيل

النسيج الفكرى لمحمد عبده ورشيد رضا وأديب إسحاق ويعقوب صنوع فى كثير ، مرورا بتأثيره فى سعد زغلول وطه حسين والمويلحى وأحمد أمين وعباس العقاد وصولا إلى رواد الثقافة فى عصرنا ..إلخ .

الاختلاف فقط يتحدد فى هل كان الأفغانى إسلاميا أم كان ديماموجيا؟.

وحتى هذا الاختلاف يعود إلى تنوع المشارب وتعدد التيارات الفكرية واختلافها الذى لايخلو من نزعة أيديولوجية فى أحسن الأحوال ، أو من مصلحة براجماتية فى أكثر الأحيان .

ومازلنا نحدث أنفسنا ، أو نحدث غيرنا ، وفى جميع الحالات تبقى الأسئلة معلقة :

ماذا نعرف ؟

وهو ماينتقل بنا إلى السؤال التالى ؟

ولماذا نعرف ؟

..

نعرف - وهنا تبدأ الإجابة - أن هؤلاء لعبوا أدوارا مهمة فى تاريخنا الحديث والمعاصر ولكى نعيش فى عالم كعالمنا لابد لنا أن نعرف أكثر، فالمعرفة - وقد أصبحت مسألة بدهية - ..قوة

من يملك المعرفة يملك القوة رددناها كثيرا .

والمعرفة - فى حالة كحالتنا الآن - لابد أن يسلك لها طريق تعاد صياغة السؤال فيه صياغة جيدة أو جديدة .

السؤال هو البدء والختام .

فإذا عرفنا كيف نسأل جيدا ، كيف نعيد صياغةمانريد فى شكل سؤال ، نكون قد اقتربنا كثيرا من الإجابة / المعرفة .

ومالم نجب عنه فى عالمنا العربى كثيراً .

ومالا نعرفه أكثر .

رغم أننا نزعم أننا نعرف الكثير من آن لآخر، وأنهار الصحف الكثيرة والكتب الغزيرة مازالت شهادة على أزمتنا.

فلنترك الأزمة (ولنترك فقه الأزمة الذى يشيع الآن ؟) لنعود إلى سؤالنا الذى طرحناه منذ قليل:

لماذا نعرف؟

السؤال يعود بنا إلى الحلقة المفرغة :

لكى نعرف

أو ، لأننا لانعرف ..

إذن ، فمن يعرف أن جمال الدين الأفغانى يمكن أن يعد رائدا للقومية العربية !!(هذه علامات تعجب وليست استفهاما ، فالإجابة غريبة على أسماعنا) لقد عرفنا السيد جمال الدين ثائرا ثوريا أو إسلاميا أو ديماموجيا أو مريبا (كما حاول أن يقنعنا لويس عوض مثلا)، وعرفنا جمال الدين - حين نحسن قراءة تاريخنا - على أنه رائد معاد للاستبداد، غير أن وجه التوجه العربى والتأصيل له لم نعرفه فيه مصلحا اجتماعيا.

الأفغانى رائد للفكرة العربية !! هذا لم نكن نعرفه .

أو لم نكن نعرفه كما سنرى عبر هذه الفصول .

ومايقال عن الأفغانى الغامض - وما أكثر وجوه الغموض فى حياة الرجل - يقال عن طه حسين وعبدالله النديم وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس ... إلخ فيما بعد .

وهو مايحتاج إلى تفصيل أكثر :

- كيف كان الرأى العام حول صاحب (فى الشعر الجاهلى) فى النصف الثانى من العشرينات حتى اليوم ؟

-ماهو موقف النديم - خطيب الثورة المفوه وتلميذ الأفغانى -؟.

- ثم ما هو موقف العقاد ابن العصر الـليبرالى من ثورة يوليو سنوات طويلة قبل رحيله ؟

-ثم من هو توفيق الحكيم الذى اسمى (بعدو المرأة) وصاحب(عودة الروح) ثم فى فترة تالية (بصانع الأقنعة) وصاحب (عودة الوعى)؟

ماهى العلاقة بين الوجه والقناع ؟.

ومن هو صاحب (البروباجندا)البارع طيلة حياته ؟

من هو رجل كل العصور ، وكل الزعماء وكل المذاهب .إلخ

-هل نصل إلى إحسان وإدريس ..؟

إذن ، فما هى علاقة إحسان - على سبيل المثال - بالسياسة ؟

انه لم يكتب فى السياسة حتى أجلس عنوة على مقهى فى الشارع السياسى فى السبعينات بعد أن أدخل السجن فى أزمة ١٩٥٤ ولم يخرج منه قط، اللهم إلا إلى دروب كثيبة عرف فيها القصة وهرب إلى الرواية ،واقترب من فن الكتابة الأدبية .

وحتى حين أمر الرئيس المؤمن فى السبعينات أن يكتب فى السياسة لجأ إلى أسلوب أشبه بفن (الأبيجراما).

هذا الفن الذى يدور فيه الحديث حول قضية معينة بين اثنين أحدهما من جيل والآخر من جيل، بهدف التلغيز أكثر من الإفصاح.

وكأن إحسان لم يخرج من السجن الحربى فى شتاء ١٩٥٤ حتى رحل.

ثم يحيرنا إمبراطور القصة القصير الغاضب المندفع

صاحب الضوضاء الكثيرة و(البروباجندا) فى زمن تال

ما علاقة يوسف إدريس بالاقتصاد ؟!!

ما علاقة إدريس باقتصاد السوق وشركة الدخان وانفتاح السبعينات الذى وصل مداه السيئ فى الثمانينات بعد رحيله؟!!.

ثم، وهو سؤال أرجأناه إلى نهاية الكتاب، من هو الأستاذ ـ حسنين هيكل ما هى الأخطاء، التى بدت على شكل أسئلة مستعصية على الإجابة أو أخطاء مستعصية على الفهم، والإدراك..!!

علامات تعجب أكثر من علامة الاستفهام.

هذه جملة من الأسئلة التى كنا نظن أننا نعرفها

ولأننا لا نعرفها

ولأن الانسان عدو ما جهل

فنحن فى (حالة) لا نعرف فيها شيئاً عن فكرنا الحديث

والمفارقة تأتى من هنا

نعتقد أننا نعرف

ونحن لا نعرف

أو لا نعرف جيداً إجابة لسؤال واحد

أو لا نعرف جيداً صياغة السؤال لنصل إلى الإجابة

وهى حالة كنت أنا (على المستوى الشخصى) أسيرا لها فى أوقات كثيرة

ولمحاولة الخروج منها كتبت عن المثقف

أو عن المثقفين فى عصرنا التعس الذى غابت فيه الوجوه وزادت الأقنعة واختلطت المسميات.

سلكنا إلى المعرفة شتى الطرق

من هذه الطرق عرفنا بعضها بالوثيقة (الأفغانى والعقاد ..).

وعرفنا بعضها الآخر بالوثيقة والدرس معاً.

وعرفنا بعضها الثالث بالوثيقة والدرس والمقابلة أوما عرف علمياً (بمحضر النقاش)

فنضيف إلى معارفنا النظرية مصدراً حياً نستعين به على الغموض.

وفى الوقت نفسه نكون حذرين من التعامل مع المصدر كيلا نسقط فى أحبولة (الحديث عن النفس) وننساق إلى ما يريده هذا الرجل أو ذاك.

نكتفى بوضع اليد على المناطق المجهولة

أو إعادة الاكتشاف

وليست هذه المناطق المجهولة غير علامات استفهام ناقصة نحاول أن نعيد صياغتها للوصول بها إلى ما نريد.

لقد كنا حذرين أمام أثر التراكم الزمنى أو سحابات الغموض أو مراوغة الاعتراف الذاتى وهو ما فعلناه حين أشرنا إلى تحديد السؤال.

لتحديد الإجابة، أو الاجتهاد فى تحديد الإجابة، فالإجابات التى نصل إليها - بهذه الصورة - تجهدكثيراً للاقتراب من الحقيقة.

أو تصبح هى جزءا من الحقيقة

وهو غاية ما نسعى إليه من هذا الجهد.

ومن أجل هذا، لم ندخر جهداً، ونحن نسعى إلى الحقيقة.

سعينا إلى قراءة الأرشيف الفرنسى فى المكتبة الأهلية بباريس

والتعرف على الوثائق الروسية فى مظانها الأولى

والعيش لفترة فى بعض دور الوثائق أو المحفوظات المصرية التى عرفناها فى مصر.

كما لم نتردد للعودة إلى بعض المصادر الأخرى للحصول على بعض الأوراق الأخرى، أو بعض الخطب التى ألقيت أمام أحد الزعماء ولم تنشر فى داخل مصر بالنص،وهو ما حدث بالنسبة إلى العقاد على سبيل المثال.

استخدمنا عديداً من الأساليب والمناهج والطرق لنحاول كشف بعض الملامح المظلمة لدى مثقفينا.

وكما حاولنا أن نعرف، فالمعرفة قوة - كما يقول الفيلسوف بيكون- كذلك، حاولنا أن نسمع من عديد من أولئك المثقفين الذين كتبنا عنهم، امتثالاً للحكمة التى قرأناها على المعابد الأغريقية : اعرف نفسك بنفسك.

وقبلها كانت معروفة على جدران المعابد الفرعونية.

فمعرفة الآخر تقود - بشكل ما - إلى معرفة الذات.

وهو طريق خبئ لم نحاول أن نكشف عنه هنا.

بقى أن نقول أنه لهذا، أو من أجل هذا .. سعينا إلى هذه الشخصيات من المثقفين لنعرفهم أكثر، فنحن لا نعرف عنهم شيئاً - كما نعتقد أو نجزم - ونحن لا نريد أن نعرف أكثر مما عرفنا فهذا يكفى.

ويزيد الأمر خطورة لا يمكن حصرها فى زمن تحاصرنا فيه (ميديا) الغرب المتوحشة وصناديقه الكثيرة (كصندوق النقد) ومنظماته المتوالية (كمنظمة التجارة المعروفةبالجات) ومصطلحاته الخادعة المخادعة من أمثال (الديمقراطية) و(حقوق الإنسان) ثم ها نحن قبل هذا وبعده فى عصر العولمة (=الأمركة).

ثم ها نحن وقبله نسعى لأن نعرف أنفسنا، ونرسخ قيمنا الثقافية قبل أن يكتسحنا عصر الغرب المستبد البغيض.

فهل - يا ترى - حاولنا أن نسهم فى هذا؟

هذا ما سيراه القارئ الكريم..

والله الموفق

د . مصطفى عبد الغنى

القاهرة ـ ١٩٩٨

الاتجاه القومى عند الأفغانى

« إن الحكمة قضت أن تكون الحواس البشرية المعروفة خمساً، وأن يكون للإقليم خواص خمس. بها تميزت الشعوب .. أما الخواص فأربع منها ما يستمد من طبيعة الإقليم، والخامسة تطرأ فتؤثر وهى «الدين» ويليها «اللسان» و«الإخوان» و«العوائد» و«الإقليم» وأثره على المجموع .. وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم والذود عنهم»

جمال الدين الأفغانى

لم يكـن رصد الاتجاه الإسلامى عـند جمال الـدين الأفغانى فـى القرن الماضى يـعنى غلبة هـذا الاتجاه.إنما يعنى تـبلوره - عبر أحدث عـاصفة - وتطويره عـبر الاتجاه القومى الـصاعد - الوطنى أو الـقومى - عبرمنـظومة أفغانية براجماتية دالة.

أيضاً لـم يصل اليأس درجة جـعلته يستـبدل بالعقـيدة السياسيـة اتجاهاً آخر، وإنما هو الوعى بمايمكن أن يلعبه الواقع بتياراته واتجاهاته فى إحداث التغيير الذى يطلبه، وفي خلفية المشهد دائماً المجتمع الإسلامى المثالى.

وهو ما يحتاج إلى تفصيل أكثر

إن من يرصد (خـطاب) جمال الدين الأفـغانى فى القرن المـاضى يرى أننا أمام عدة مفاهـيم. فهناك المسألة الشرقية والجامـعة الإسلامية أو "رابطة الملة" و اتجاه القـومية المصرية فالقومـية العربية .. إلخ وهو ما يـعنى تداخل الدوائر وتبدلها حسب تغيير العصر وحاجاته.

والواقع أن تداخل المفـاهيم وتناقضها كانا يشيـران إلى أن البلاد كانت وشيكة الخروج من العـصر العثمانى، ومن ثم فإن النزعة الـتى غلبت على فكر الأفغانى كانـت - فى المقام الأول - تعنى التوسل بأية عـناصر فكرية أخرى لا تـتناقض مـع الفكرة الـرئيسيـة وإنما توظف لـتطورها الجـديد، فالجامـعة الإسلامية بتـعبير د.محـمد محمد حـسين كانت هى «الـنزعة الغالبة على تفكير العصر ، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت عـلى الأذهان، وحين كانـت العاطفة الديـنيةهى المسيـطرة على القلوب والأفهام»(١).

كانت الغاية هى تحرير الشعوب الإسلامية من عنت الاستعمار الغربى.

وكانت الوسيلة تلمس أى اتجاه - بما فيه الاتجاه الإسلامى- للوصول إلى هذه الغاية وعبورا فوق مفاهيم كثيرة، فإن قضية الاتجاه الإسلامى كانت من أهم الدوائر التى مثلت الركيزة الرئيسية فى مشروع الأفغانى، ثم تداخل معها الاتجاه القومى - فيما بعد - بدرجاته .

وهو ما يقتضينا أن نتمهل عند هذا الاتجاه الإسلامى قبل أن نفرغ إلى تطويره فيما بعد.

...

بدهى أن دائرة الفكر الإسلامى كانت أكثر ما يشغل جمال الدين فى النصف الثانى من القرن الماضى، إذ رأى منذ البداية أنه يستطيع أن يخوض - فى مجتمع إسلامى - بأية وسيلة معركة ضد التدخل الأوروبى فى شئون العالم الإسلامى خاصة الهند ومصر، ويزيد من هذا أن مطامع الغرب كانت قد بدت تظهر أكثر شراسة وهيمنة عبر فرض الديون والهيمنة على الحكام والتضييق على الصحف، واستبداد (أمراء المسلمين) أنفسهم، وهو ما يفسر موقف جمال الدين العنيف فى ذلك الوقت فى استخدامه للدين الإسلامى بوسائله التى دبت فى نشاطه الصحفى والسياسى وصولاً إلى تفكيره الجاد فى العنف الدموى ** خاصة وأن هذه العقيدة كانت قادرة - فيما يرى- على إيقاظ الشعوب من النوم والغفلة والفساد والتقاليد السيئة Superstition أوالرواسب القديمة.

ولتعميق هذا الاتجاه لدى الأفغانى أنه ارتبط لديه فى ممارساته أيضاً بالمسألة الشرقية، فارتبطت هذه المسألة بالعقيدة ليكونا المكون الذى يمكن به تحريك الملايين من المسلمين ضد مطامع الغرب.

وعلى هذا بدت الدعوة الإسلامية لدى الأفغانى كأنها فى صراع يمتد بأثره إلى الوراء، حيث الحروب الصليبية فى العصور الوسطى(٢) خاصة أنه فى كل فترة كان يحاول اهتبال اهتمام أية دولة إسلامية بالإسلام كوسيلة

للسيطرة وهو ما يفسر انحيازه إلى الخلافة العثمانية (تعامل طويلاً مع السلطان عبدالحميد)فقد خيل إليه أنه يستطيع إقناع الخليفة على توحيد السنة والشيعة وهو ما جعله يتعامل مع عدد كبير من المثقفين والإسلاميين وحتى التنظيمات الإسلامية، أيضا فى فترة من فترات حياته وارتباطه بالخديوى إسماعيل حين خيل إليه أن حاكم مصر قادر على بناء إمبراطورية إسلامية قوية وإن اتخذ موقفا مغايراً فيما بعد.

وعلى هذا النحو نستطيع فهم تطور الفكر الأفغانى من الاتجاه الإسلامى بأساليب مختلفة تراوحت بين الاستمالة إلى العنف الدموى إلى اهتبال فرصة الحركة القومية الوطنية فى مصر فى السبعينات للإفادة منها فى مخططه، ومن ثم كان تشجيعه للحركة الوطنية مساعداً لها على اليقظة والتنبه لما يحدث حولها.

وهذه هى الفترة التى وعى فيها «ألبرت حورانى» الأثر الذى تركه الأفغانى فى الحركة الوطنية فى مصر وما آلت إليه حين قال فى موقفه من المصريين إنه «علمهم أموراً كثيرة أخرى أخطرمن التدخل الأوروبى والحاجة إلى الوحدة الوطنية لمقاومته، والسعى إلى وحدة أوسع للشعوب الإسلامية، والمطالبة بدستور يحد من سلطة الحاكم، وشجعهم على الكتابة واصدار الصحف وتكوين رأى عام، وهكذا أسهم - بواسطتهم - فى تحريك الاختلاجات الأولى للوعى القومى(٣).

وعلى هذا النحو، كان من السهل تصور ظهور الدوائر وتلاشيها فيما بينها، فبينما كانت الدائرة الإسلامية أظهر هذه الدوائر وأهمها لديه، وتداخلت معها الدائرة الوطنية، وبدأ نمو القومية المصرية فى مصر فى السبعينات عبر أحداث كثيرة انتهت بنفى الأفغانى وسقوط مصر فى قبضة الغرب، ولم تلبث الدائرة الثالثة أن بدأت تتهاوى أكثر مع إرهاصات الوعى القومى التى تراكمت أكثر فى نهايات القرن التاسع عشر، وأكثر، منذ بدايات القرن العشرين.

الاتجاه القومى - الأول

كان الاتجاه القومى- الـوطنى أكثر ما عبر عنه الواقع المـصرى فى الفترة التى قضاها الأفغانى فى مـصر (١٨٧١ -١٨٧٩) وقد ظهر فى عديد من الملامح والمؤسسات والجمعيات من ذلك مـا عرفنا من إنشاء صحف كثيرة وتكوين (الحزب الوطنى) وما لبث أن لحقت به جمعية (مصر الفتاة) ونشاط البرلمانيين بشكل لم يشهد مـن قبل، وكان القاسم المشترك بين كل هؤلاء هو نشاط الأفـغانى الذى كان وراء العديـد من هذه الأنشطة سواء بـتوفير الرخص للصحـف، أو التعبير بشكل حاد وثورى فى (خـطب) كثيرة عن الواقع الجديد.

ويظل هذا كله جزءاً حميما من حـركة الاتجاه القومى التى تبلورت فى مصر - فيما بعد - ومن ثم ، وسوف نتمهل عند بعض هذه الثورات.

(أولا) الصحف المصرية :

لا شك أن جمـال الدين سعـى إلى إنشاء الـصحف للإفـادة من الاتجاه الوطنى الصاعد، إذ ساعد أديب إسحاق وسـليم النقاش فى الحصول على رخص جريدتى (مصر) و (التجارة) وشارك فى الـتحرير كما دفع بتلاميذه ومريديه للمشاركة فيها مثل الشيـخ الأستاذ محمد عبده، وتلميذ الأفغانى النجيب إبراهيم اللقانى.

أيضاً أسهـم فى مسـاعدة سليم العنحورى على الحصـول على ترخيص صحيفة (مرآة الشرق).

الأكثر مـن ذلك أن جمال الـدين قام بتـأسيس مطـبعة سمـاها الاتحاد لتصدر فى نهاية السبعيـنات جريدة سميت بالنحلة THE BEE فى لندن لمقاومـة الاستعمار الـبريطانى مـن منطلـق وطنى كذلك كـان وراء إنشاء جريدة (أبو نضارة) وأخواتها بعد ذلك ليعقوب صنوع، فضلاً عن اشتراكه فى الكتابة فيهـا وتوجيه عديد من الكتاب ليشاركوا، أيضـاً، لتعميق نفس هذا الاتجاه بالوطن.

وعلى هذا فالملاحظة الأولى هنا، أن تطور مفهوم الوطن اتخذ شكلاً إيجابياً سواء فى تشجيع المسيحى واليهودى والمسلم(٤) فى إنشاء الصحف، أو فى منحها أسماء إقليمية خالصة تنم عن الوطن والاعتزاز به، فضلاً عن القضايا التى عرض لها، إذ شغلت بالقضايا الوطنية التى تعانى منها البلاد تنقد سياسة الحكومة وتندد بمواقفها الضعيفة المفرطة فى حقوق المواطنين ثم مهاجمة الإنجليز قبيل الاحتلال وبعده بعنف، ونشطت المعارضة للحاكم المستبد سواء من المثقفين أو النيابيين والشعراء.

وعلى هذا النحو فإن مراجعة صحف هذه الفترة سترينا كيف كانت آراء الأفغانى ومواقفه وراء اشتداد الاتجاه الوطنى الصاعد بين المصريين، وفى الوقت نفسه، نمو الإحساس بقيمة الوطن إلى حده الأقصى.

وقد نجح جمال الدين فى فرض أفكاره وتداولها فى هذه الصحف، وتسجيل خطبه والتحريض بها فى القضايا الوطنية.

(ثانيا) الحزب الوطنى :

وأعلن الحزب الوطنى أوائل عام ١٨٧٩، أى قبل أن يرحل إلى الخارج بفترة بسيطة، كان الأفغانى عضواً عاملاً فيه ومتحدثاً باسمه ودخل فيه الكثير من العلماء والنواب منهم محمد عبده والسيد عبدالله النديم وأحمد محمود وحسن الشريعى .. وغيرهم قد تردد على لسان الحزب الوطنى المصطلح المعروف (مصر للمصريين)

ومع أن الحزب لم يعارض العلاقة بين مصر وتركيا، فإنه حرص فى الوقت نفسه على أن يحافظ على امتيازات بلاده الوطنية بكل ما فى وسعه، ويقاوم من يحاول إخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية، وكان رجال الحزب يرون أن نظام المراقبة الثنائية وقتى، ويأملون قرب اليوم الذى يرون فيه مصر بيد المصريين، وقد كان من أهم مطالب الحزب المطالبة بإطلاق الحريات الكافية للنواب المصريين وتقوية الجيش وزيادته حتى يستطيع الدفاع عن بلاده»(٥).

وقد كان دور الأفغانى مؤكداً فى تمثيل هذا الحزب أو الحديث باسمه أو نقل خطبه فيه إلى الصحف كما سنرى.

(ثالثا) دور الأفغانى:

وتؤكد كل المصادر أن دور الأفغانى فى تجسيد الاتجاه الوطنى فى الدائرة الإسلامية الأوسع لا يمكن إنكاره، لقد ظهر فى مقاومة الحكم المطلق بالقدر الذى ظهر به فى تحديه للإنجليز وتحريض الوطنيين سواء كان ذلك فى فترة حكم إسماعيل أو - حتى- فى عهد توفيق حيث بدا أن الثورة العرابية كانت امتداداً أكيدا لهذا الاتجاه.

ومن الأمثلة التى تؤكد دور الأفغانى فى تأكيد المواطنة خطبته الشهيرة بالأسكندرية بعنوان (حكيم الشرق)(٦)- وفى هذه الخطبة - النص فى الملحق - يبدو فيه الأفغانى وهو يعبر عن ضيقه بالتعصب والاستبداد داعياً الحاضرين لتأسيس حزب يحمى الوطن ويحمى حقوق البلاد ويصون مجدها، وبنجاح هذا الحزب يكون للمصريين لغة مشتركة سليمة العبارة وتتحقق هذه الأهداف الثلاثة : إشعال الحماسة وإنشاء حزب وطنى وإحياء اللغة العربية. وكان التحريض منه لاستكمال شكل الحزب فدعا إلى قاعات اجتماع يشيد فيها الخطباء بأمجاد الماضى ويعرفون الشعب بحقوقه وواجباته.. كذلك دعا إلى صحافة وطنية.

وعلى هذا النحو، فإن خصوم الأفغانى أنفسهم لاينكرون دوره الحثيث فى تأكيد الوطنية متمثلة فى إبرازه القوميات، التى يسميها الجنسيات فى نهضة الأمم، و إدانته للتعصب الدينى واستبداد الحكام ودعوته لإنشاء حزب وطنى يحمى النظام النيابى، ودعوته لحرية الاجتماع وحرية الصحافة وتعليم المرأة، والأخذ بأسباب الحضارة الغربية تأكيدا لقوة الوطن وتعميق اتجاهها، وما لبث أن إنشأ جمعية أخرى باسم (مصر الفتاة) فى نفس العام أسهم فى إنشائها وعاون على إصدارها بالأسكندرية.

وقد كانت للهجة الأفغانى من العنف لتأكيد الهوية الوطنية ما لا يمكن إنكاره، وعلى سبيل المثال، ففى ترجمة سليم العنحورى لجمال الدين نلاحظ أن الأفغانى لا يكتفى بطبقة المثقفين. بل يتوجه إلى الجماهير، ليصيح فيهم أكثر من مرة ليوقظ النوازع الوطنية، حيث يقول فى إحدى المرات:

«إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد، وربيتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة (الهكسوس) حتى اليوم، وأنت تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون، وتنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة معرضون، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحماية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ... (و) .. هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء ..»(٧).

على أننا لا نريد أن نسهب طويلاً حول الاتجاه الوطنى هنا، فرغم أن هذا الاتجاه ارتبط كثيراً بظروف مصر، ونمو الاتجاهات الحضارية، وتعميق الاهتمام بالوطن والتاريخ والجنسية وما إلى ذلك، فإنه كان يختلط بالدين إلى حد بعيد وهو ما يمكن أن نوافق عليه محمد حسين فى أن الدعوة الوطنية التى كانت مختلطة بالدين كافية للتأكيد على أن الاتجاه الوطنى لم يخرج عن الدائرة الإسلامية بعد، وإن بدت مساحاته شاسعة وأكثر ظهورا، وهو ما يبدو فى كتابات الأفغانى وتلامذته وإلى ما بعد قيام الثورة العرابية بكثير.(٨) وبشكل أكثر دقة، كان من الصعب- وهو ما نشدد عليه من آن لآخر هنا - تجاهل عامل الدين إذ كان يقينه أنه من أهم العوامل الأخرى التى تصنع الوطنية وتؤكد على وجودها(٩).

الاتجاه القومي - الثاني:

والملاحظ أن الفترة التي عاشها الأفغاني في الهند أثرت كثيراً في فكره.

ففي الهند عاش مشهداً ثقافياً عريضاً تعددت فيه الديانات والمذاهب والأجناس، وفي الوقت نفسه شهد استبداد الإنجليز وألاعيبهم في استخدام العصبيات المتنافسة في إحكام السيطرة الغربية، وتواطؤ امراء الشرق وخداعهم (وهو ما يلاحظه من يقرأ كتاب نيكي كيدى (Nikki. R. Keddies

وقد أسهم في تصاعد التيار القومي بين الأجناس المتباينة وتعدد الأجناس المختلفة وهو ما تبلور أكثر في الوطن الواحد. ثم الأجناس المختلفة في الأوطان المتقاربة، وهو ما اقترب به من تداخل دائرتي القومية المصرية مع القومية العربية وفي الوقت نفسه لم يغفل - قط - تأثير الاتجاه الإسلامي.

لقد ظلت الدائرة الإسلامية تهيمن على المشهد العام، لكن تداخل معها الآن دوائر أخرى يمكن بالعمل معاً مجابهة تحدى الغرب الأوروبى المستعمر.

وقد يكون من المفيد قبل أن نمضى أكثر في الاتجاه القومي أن نشير إلى المعركة التي دارت بين الأفغاني وبين المستشرق الفرنسي «أرنست رينان» على أثر إلقاء هذا الأخير بالسوربون محاضرة ضمنها أفكارا عنصرية ضد العرب والمسلمين، وقال فيها:

- إن الديانة الإسلامية بما لها من نشأة خاصة، تناهض العلم.

- إن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة.

وعلى هذا النحو راح «رينان» يتهم الإسلام والعرب بالقصور الفكري

وحرية العلماء بهدف أن ينتهى إلى نتيجة خاطئة هى أن التراث الإسلامى ليس غير إنتاج لشعوب غير إسلامية.. كماأنه ينتفى معه القول أنه إنتاج عربى لشعوب تعربت بالحضارة واللغة والولاء.

وبعد أن يوضح الأفغانى فى رده على النقطة الأولى الذى أنهاه بأن «رؤساء الكنائس الكاثوليكية لم يلقوا أسلحتهم بعد، كما أعلم، وهم عاكفون على ما يسمونه بالتدليس والضلال» لينتهى بسرعة إلى ما تلاها إذ قال:

- وأما النقطة الثانية ، فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها ، وأخذ يسير فى أثر التقدم الذهنى، ويغذ السير بسرعة لاتعادلها إلافتوحاته السياسية، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف مع العلوم اليونانية والفارسية.. فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب فى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم».

وعلى هذا النحو، يواصل الأفغانى فيرفض معيار (رينان) القائم على العرق والجنس ونقاء اللغة ويرى أن الحضارة واللغة والهوية هى المعيار فى هذا المقام، ومن هنا فإن العروبة شئ والإسلام شئ آخر. وقد كانت العروبة أسبق من الإسلام زمنياً، ثم إن الإسلام مد تأثيرها الكبير بعد أن تم لأصحابه الفتوحات واكتملت للشعوب التى فتحت بلادها بالإسلام مقومات التعريب.

ويضرب الأفغانى من الأمثلة ما نتمهل عنده مرة أخرى.

وعلى هذا، إن فترة السبعينات من القرن الماضى شهدت لدى الأفغانى تطوراً فى التوفيق بين نماذج شتى سواء على مستوى السلوك الذهنى أو المعرفى، فوجد نفسه فى تقابل مع عديد من الأجناس بغض النظر عن انتماءات أصحابها الدينية والمذهبية.

وقد تـوالى هذا التـطور فى الـظهور عـلى مراحل، فـفى وقت كـانت الدائرة الدينية أكثر ما سيطر على وعـيه، ما لبث أن تداخلت معها الدائرة الإقليمية مع إحساسه أن اللغة عنـصر ضرورى فى خلق جماعة مستقرة إذ رأى أن المجتمعات البشـرية التى لاتجمعها لغة مشتركة لا يـمكن لوحدتها أن تكون ثابتة. واقترن هذا بتمنيه أن تتبنـى الدولة العثمانية اللغة العربية، وما لبث أن اكتشف فـى فترة تالية أن الرابطة الدينية (بـالإضافة إلى اللغة) فضلاً عن الـعوائد (أى الثقافة الإسلامـية) لا تتعارض مع الروابط الـقومية القائمة بين أقوام ينتمون إلى أقوام مختلفة.

ولم يتردد فى هذه الفترة أن يردد أنه يـتمنى أن تذوب الفوارق الوهمية بين الشعوب لينمو الاتجاه القومى فى اتجاه التحدى الغربى.

بل يلاحظ أنـه كثيرا ما ردد أن هذه العـادات والتقاليد وعوائـد العروبة هى أسبق من العقـيدة الإسلامية تاريخياً، كانت العـروبة أسبق فى الوجود ثم جاء الإسلام فى فترة تالية ليمد ظلالها وينشر مقوماتها.

والذى يراجع خطبه أو كلماته فى نهـاية السبعينات يلاحظ أنه بعد أن كان يتـحدث عن الـنماذج الإسلاميـة كان يضيـف إليها بـسرعة التـاريخ الفرعونى أو الفينيقى إنه يقف أمام جمـهور غفير قبل نفيه عن مصر بأشهر قلائل ليقول فى خطبة ثورية عنيفة:

(لا أريد أيهـا السادة أن أذكركـم بمجد آبائـكم الكرام، وأنـكم إماأن تكـونوا مـن أبنـاء المصـريـين، أو من حفـدة الفـينـيقـيين، أو من سـلالة الكلدانيين، وأن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها ومن الحساب غايته .. (و) .. ولا أذكركم بالفيـنيقيين وأنهم وضعوا أصول الـصناعة وخاضوا عباب البحار وكانت انجلترا واليونان من مستعمراتهم..)(١٠).

وهو فى مرة أخرى يـرى - كما أسلفنا - إلى أن «الحرانيين - الذين سكنوا شمال العراق قبل الإسلام - كانوا عربا .. وأن اللغة العربية كانت إلى ما قـبل الإسلام بعدة قرون لـغة الحرانيين، وكـونهم قد حافظـوا على

دياناتهم القديمة وهى الصابئة، ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية»(١١) ويلاحظ البعض هناأنه فى سبيل ذلك يتحدث عن الحضارة التى ورثها العرب والتى ساعدوا فى ازدهارها فى الشام إنما هى حضارة غير مقطوعة الصلة بالعروبة فقد «كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية .. وهو بهذا ينفى كما يلاحظ د. محمدعمارة أن يكون المعيار للإدخال فى العروبة أو الإخراج منها الأصل المعرفى أو العقيدة الدينية، صابئة كانت هذه العقيدة أو مسيحية أو إسلاما، لكنه قد اتخذ معياراً أكثر إنسانية واتساعاً وتقدماً، وهو المعيار الحضارى الذى تقف اللغة فى مقدمة سماته وقسماته، وذلك عندما يحسم هذه القضية - فى عصره - بقوله أنه « لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلابلغتها» وعندما يقول أيضاً أن «الأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوضوح »(١٢).

والاتجاه القومى المتقدم لديه نجده فى أكثر من موضع بعد ذلك، فهو حين يشير إلى الملابسات التى تجعل من المجموعة البشرية التى تعيش عناصر معينة، فينطبق عليها هذا الاتجاه فإنه يعد هذه العناصر بخمسة يسميها خواص ومؤثرات، أربع منها تعدد على النحو التالى:

١ - اللسان.

٢ - الأخلاق.

٣ - العوائد.

٤ - الإقليم.

وحين يصل إلى الخاصية الخامسة والتى هى طارئة من خارج الإقليم فهو يحددها بالعنصر الخامس (الدين). (١٣)

وهذا يعنى أننا أمام تكون عناصر القومية العربية كماعرفناها منذ بدايات هذا القرن بشكل أكثر وضوحاً، وأسبق منها بفترة طويلة.

ومن هنا تتداخل الدوائر الثلاث: الدينية والوطنية والقومية وحتى تصبح جميعاً دائرة واحدة، لايمكن التفريق فيها بين اتجاه واتجاه آخر.

يجب أن نسارع بالقول هنا أن الانتقال من دائرة إلى دائرة عنده، لم يكن مبعثه الضيق أو التخلى عن أفكار سابقة، وإنما كان لسعيه إلى تغيير الوسيلة للوصول إلى الهدف الأساسى الذى ارتبط به، من تحرير الشعوب الإسلامية بثقافتها العربية، ومن هنا فإن السعى لاكتمال الدوائر الثلاث : الإسلامية والوطنية والعربية كان يعنى السعى لاكتمال وسائله للوصول إلى الغاية.

لقد استطاع جمال الدين الأفغانى أن يصل إلى الدائرة الأشمل، الدائرة القومية فى سبعينات القرن التاسع عشر، وها نحن نحاول استعادتها دون جدوى - فى نهاية القرن العشرين.

هل يكون جمال الدين أكثر وعيا منا؟

وهل يكون قتله غيلة فى الآستانة علاقة بهذا الوعى؟

أسئلة لم نصل إلى إجابتها بعد قرن من رحيل جمال الدين الأفغانى.

هوامش

* الفروق بين المفاهيم واضحة إلى حد كبير.

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر.
جـ١، مكتبة الآداب ومطبعتها / ١٩٥٤ ، انظر المقدمة.

** وصل جمال الدين فى عنفه الدموى إلى درجة تحبيذ الاغتيال السياسى من أجل تحقيق أهدافه السياسية، وقد قال بلنت فى كتابه (التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر) ١٩٣٣ أن : جمال الدين الأفغانى اقترح على الإمام محمدعبده قتل الخديوى إسماعيل، وهو ما لا ينكره عدد كبير من معاصرى الأفغانى منهم محمد عبده نفسه، وقد سجلت عديد من محاكمات الاغتيال لكثير من المستبدين والساسة معرفة ما لجمال الدين بطريقة التنفيذ أو اشتراكه فيها بشكل ما.
أيضاً انظر : تفصيلات كثيرة حول هذا فى أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية انظر:
Menikon de Gamal el din Afgani dans les archives au Quai d, orsay (correspondance politique - Perse - anee 1896.

(٢) السابق : ص ٢ - ٥.

(٣) ألبرت حورانى، الفكر العربى فى عصر النهضة.
بيروت . بدون ص ١٣٨.

(٤) يلاحظ هذا العدد الهائل من الذين راحوا يشاركون فى هذه الصحف الوطنية من أمثال محمد عبده، ورشيد رضا وسعد زغلول وأحمدعرابى وعبدالله النديم ومحمود سامى البارودى ومحمد فريد وإبراهيم الهلباوى وعبدالكريم سليمان وعبدالسلام المويلحى وعلى عنحورى وعلى بك مظهر والشاعر الزرقانى، إبراهيم القونى ولويس صابونجى. وغيرهم ممن تعددت الانتماءات الدينية لديهم بين مسلم ومسيحى ويهودى كما تحددت الانتماءات الوطنية فى المقام الأول على اعتبار وحدة الإقليم ووحدة الاتجاه

(٥) عبدالباسط محمد حسن، جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامي، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط١/ ١٩٨٢.
أيضاً انظر :
Osman Amın . Muhamd Abduh,essai Le Cair. 1944. p.9.

(٦) جريدة مصر، ع ٤٧ م ٢ فى ٢٤ مايو ١٨٧٩.
(انظر النص فى الملحق).

(٧)انظر تاريخ الأستاذ الإمام ، رشيد رضا (ترجمة سليم بك حنحورى للسيد جمال الدين) ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٨) يظهر هذا بعد فشل الثورة العرابية، ففى جريدة (العروة الوثقى) نلتقى بعديد من هذه الأفكار منها على سبيل المثال:

(أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة وافتراساً).

وفى موضع آخر، نقرأ:

(لماذا تعدون أنفسكم فى الدرجة السفلى عمن سواكم؟ ألستم تتشابهون فى الخلق مع أعدائكم ؟ ألستم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق والعقائد الصحيحة؟ ألستم تنسبون إلى أولئك الأبطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد؟ ألستم تدعون أنكم أشرف عنصرا وأقدم جوهراً).

(٩) محمد حسين . السابق.

(ويلاحظ محمد حسين أن هذا التأثير الإسلامى كان موجوداً فى مقالات محمد عبده التى كانت - فى الغالب من تفكير الأفغانى وصياغة عبده بعد ذلك، كما لاحظ هذا فى قول البارودى فى منفاه فى هزيمة الثورة العرابية حين قال:

لم اقترف زلة تقضى على بما | أصبحت فيه، فماذا الويل والحرب
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى | ذنب أدان به وأغترب

الاتجاهات الوطنية ص ٥٧ .

(١٠) جريدة مصر ، السابق.

(١١) الأعمال الكاملة لجمال الدبن الأفغانى، محمد عمارة ، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

[أيضاً انظر دراسة هامة لمحمد عمارة بعنوان (الأفغانى مفكراً ومناضلاً) الطليعة عدد أبريل ١٩٦٩].

(١٢) الأعمال الكاملة ، السابق.

(١٣) السابق ص ٤٢٨ .

يقول الأفغانى عن هذا :

(إن الحكمة قضت أن تكون الحواس البشرية المعروفة خمساً وأن يكون للإقليم خمس حواس، بينما تميزت الشعوب والقبائل التى خلقها الله من نفس واحدة وتقسم المعمورة إلى ما يسمونه ممالك وأوطاناً أما الخواص فاربع، منها ما تستمد من طبيعة الإقليم، والخامسة تطرأ فتؤثر وهى (الدين) ويليها (اللسان) و (الأخلاق) و(العوائد) و(الإقليم) وتأثيره على الجموع.

عباس العقاد مصدراً لفهم التاريخ المصرى المعاصر

.. تحول إلى الصمت نتيجة التناقض القائم بين المثقف والسياسى؛ ومن ثمَّ ، اسلم ذلك مثقفا كالعقاد إلى حالة من (الاغتراب) لم يستطع التواؤم معها بعد ثورة يوليو" .

هل كان العقادُ مؤرخاً – حقاً ؟

نُعيدُ طرحَ السؤال بصيغة ثانية:

هل يُمكنُ اعتبارُ العقادَ مؤرخاً – حقاً، للفترةِ التى أعقبت قيامَ ثورةِ ١٩٥٢ فى مصر؟

ولأن العقادَ كان أقربَ إلى الكاتب– المثقف منه إلى الكاتبِ المؤرخ؛ ولأن العقادَ – كذلك – كان ينتمى للجيل الأول من الليبراليين فى العشرينات (مع طه حسين والسنهورى ومنصور فهمى وحسين هيكل .. إلخ...)، وعاصرَ قيامَ ثورةِ يوليو فى بدايةِ الخمسينات حتى رحيله .. فإن هذا كُلهَ يدفعنُا إلى إعادة وصياغة السؤالِ من جديد:

هل يُمكنُ أن نعتبرَ موقفَ العقاد وتحولاته السياسية مصدراً لفَهمِ التاريخ المصرى من خلالِ رصدِ العَلاقةِ بين المثقفِ والسلطةِ فى ذلك الوقت؟

الإجابةُ عن السؤالِ الأخير هى فاتحة للإجابةِ عن بقيةِ الأسئلة .

تمهيد: (مفتاحُ الشخصية)

يُحَددُ موقفُ العقاد من قيام ثورةِ يوليو فى عاملين اثنين، أحدُهما، اعتدادُ الكاتب بنفسه إلى درجةٍ بعيدَة، والآخرُ، ارتدادُ التيارِ الليبرالى وانكسارُهُ إلى درجةٍ بعيدة أيضاً، ففى الوقت الذى لم يتخلَّ فيه الكاتبُ عن كبريائه وترفُعه السابقينَ بدا أن المُناخ الجديدَ غير موُاتٍ لهذا النمطِ من المثقفينَ بأية حال.

وهو ما يحتاجُ إلى تفصيلٍ أكثر.

كان العقادُ أحدَ شهود هذه الفترة التى بدأت بالقرن العشرين حين كانت الليبراليةُ تشهد قمةَ تطورها فى العشرينات وفترة ليست بالقصيرة من عقد الثلاثينات.

ومنذ بدايات العشرينات بدا العقادُ جريئاً في الرأي أكثرَ ما تكونُ الجرأةُ عنفاً فى إبدائه، والإصرار عليه أكثر ما يكونُ العنفُ والإصرارُ وهو ما أتاحه له إلى حدَ بعيد ذلكَ المناخ الليبرالى، وهو ما رأينا فيه هجومَ العقاد العنيف على الخديوى عباس لأكثرَ من مرة وهو ما فعله مع الإنجليز وخصوم سعدَ زغلول إذ كان العقادُ وفدياً خالصاً بل كاتبَ الوفد الأول.

ولم يتوقف العقادُ عند هذا بل إنه فى سبيل الحفاظ على قيم الليبرالية والحرية الفكريةَ راح يَشنُ هجومَه الحادَ على الملكَ فؤاد نَفسه حين هم بحلَ البرلمان، بل راحَ يتصدى لخليفة سعد حين آنسَ فيه ما لم يأنسْهُ من زعماء الوفد فى بعض الفترات فراح يهاجم مصطفى النحاس بجرأة نادرة، ولولاَ انفصالُه عن الوفد على إثر خلافه مع النحاس حينئذ (٣٤/ ١٩٣٥) لظل العقاد الكاتبَ الأولَ فى مصر.

اختلف مع سعد زغلول فوجه إليه الزعيمُ اللومَ فقال العقاد مداعباً:

- ولكن ليس كلُ فرد فى الأمة عباس العقاد.

فابتسم سعد وأجاب:

- صدقتْ، ليس كلُ فرد فى الأمة عباس العقاد(١).

واختلف مع محمد محمود الذى كان يُطلَقُ عليه (اليدُ الحديدية) فراح يهاجمهُ بعنف وسخرية، وأصدر كتاباً بعنوان (الحكمُ المطلقُ فى القرن العشرين).

واختلف مع مصطفى النحاس فغضب منه النحاس قائلاً:

- فماذا عساك تصنع يا عباس يا عقاد؟

فأجابه العقادُ فى حُنق:

- أنت زعيمُ الأمة لأن هـؤلاء (مشيراً إلى بضعةِ أشـخاص من أعضاءِ الوفد) ولكنى كاتبُ الشرقِ بالحقِ الإلهى.

لقد كان من المؤكد أن عباس العقاد يردُ بشجاعة واعتزاز بالنفس مثلت أهمَ سمات المثقف فى ذلك الوقت سواء قبل عام ١٩٣٦ أو بعدَها مروراً بثورة ١٩٥٢ وأثناءها.

بيَـد أننا لا يجـبُ أن نصلَ إلى مـواقف العقـاد من ثورة يولـيو دون أن نُشير إلى أمر هام، هو أنـه إذا كانت الفترةُ الليبراليةُ قد استـنفَدت حيويتَها عَقِب قيام ثورَة يوليو فإن شجاعةَ العقادِ وجرأتهَ لـم تخوناهُ قط.

وإذا كان قد تراجع قبـل الخمسينات عن صور النفاق الـتى مارسها من الملك قبلَ ذلـك؛ فإنه لم يستطع أن يـغفل قط، موقفه الشـجاع ككاتب أو كمثـقف ينتمـى إلى العصر اللـيبرالى فى أوجـهِ، وإلى المثقفِ الـقوى فى ذروته.

إنَ الجرأة الشديـدةَ ظلت (مفتاحَ شخصـيةِ) العقاد، فبعد مُضى سنوات على ثورة يوليو، سأله البعض:

(من هو الزعيمُ فى رأيك؟

أجاب بدون تردد:

(الزعـيم عـندى هـو سـعد زغلـول وهو فـى رأيى لايـزالُ حيـاً لـم يمت)(٢).

وحين سأله البعضُ بعد ذلك بقليل إلى ماذا يدعو؟

أجاب أيضاً، بدون تردد:

(أدعو إلى الإلهية الفكرية)(٣).

ولأن جراءةَ العقادِ مثَّلـت أهمَ العواملِ فى تحولاته واستجابتـهِ السياسيةِ

فسوف نستطردُ أكثر، فى مَثلين آخرين، لنرى كيف كان عباس العقاد، الذى كان قد وصل إلى الستين بقيام ثورة يوليو، شُجاعاً هادئاً ضدَ أي عاصفة.

إن الشيخَ الباقورى يذكر العقاد، فيذكر معه صفات من الصفات فهو رجلٌ شديد الاعتزاز بنفسه، اعتزازعالم ذى رأى احتملَ فى سبيل الدّفاع عنه شدائدَ الحياة، ومَن هنا، يعرض علىَّ جمال عَبدالناصر أن يكونَ العقادُ فى صف الثورةَ فى هذه السنوات الأولى المليئة بالمخاطرويُسهبُ أكثر فيطلب منه أن يلتقى بالعقاد فى بيتَه، ويوافق عبدالناصر، بالفعلَ، ويذهب الباقورى إلى العقاد فيعرضُ عليه الدعوةَ فى بيته للقاء عبدالناصر حيث سيقام العَشاء، وكأن اللقاءَ جاء عَفْوياً، فيقولُ العقاد فىَ أنفة وشمم هذه الفقرة التى نُثبتها، ونعتذرُ سلفاً لطولها، يقولُ العقاد لمحدثه (ولاحظ أنه يعيشُ فى نظام جديد) :

(أننى أشترط لذلك، أن يكونَ حضورى إلى منزلك بعد أن يتكاملَ المدعوون، وإن ما حملنى على هذا الشرط، علمى بأن صاحبك شديد الكبرياء، وقد يصافحنى بغير اكتراث، مُضيا على السُنة التى آثرَها لنفسه، فإذا دخلتُ فتراخى فى القيام لمصافحتى، فلا تؤاخذنى إذَا ملكنى الغضَب، فلعنت فى وجهه اليوم الذى جمعنى به، ثم انصرفت غيرَ آسف على شئ)(٤).

هذا هو المثال الأول، والمثال الآخر الذى يؤكد جرأة العقاد وإيمانه بقيمة الكاتب يتمثل فى موقفه من بعض المحررين الذين أرسلت بهم جريدة العمل لحوار مع العقاد.

كان الزمن السنة الأولى من ثورة ١٩٥٢ ومحمد نجيب رئيس لثورة أبدت من الحزم والإجراءات الاستثنائية ما يخيف من حولها، ويذكر الصحفى أنه حين اقترب من باب مسكن العقاد صاح العقاد فيه بنبرة متحدية (أوعى تفتكر إنى خايف من محمد نجيب أو من الثورة).

ولم يكن هناك من يعرف - حتى المحرر نفسه - أن قائد هذه الثورة هو جمال عبدالناصر، وأن عبدالناصر نفسه، لم يكن - حتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية- ليرهب أحد المثقفين الذى ينتمى إليهم عباس العقاد، فى وقت كانت صحيفة(الجمهورية) التى سينشر فيها الحوار هى صحيفة الثورة.

لم نكن لنغفل قط الصفة الأولى للعقاد التى صبغت تحولاته بصبغتها، وهى الجرأة والتحدى مهما تكن العواقب، رغم أن البوادر الأولى لثورة يوليو كانت تشى إلى أنها سعت إلى تأكيد وجودها بالإجراءات التعسفية أحياناً، بحكم التجربةالتى كانت تأخذ بها، أو بحكم عدد كبير من المنافقين - المثقفين والسياسيين - الذين هرولوا فى الفترة الأولى للتقرب منها ومن رموزها.

بيد أن هذه البطولة الفردية والجرأة النادرة كان لا بد أن تدخل فترة (المحاق) عقب معاهدة ١٩٣٦ أو بعدها بقليل قبل الحرب العالمية الثانية، فقد كان العقاد - مع جيله من الليبراليين - قد كف عن المواجهة السياسية العنيفة أو الثورية العالية، فقد لاحظ لويس عوض أن العقاد - على المستوى الفكرى والأدبى - « كان قد تفرغ قبل ١٩٣٦ من عمله العام وهو بناء النقد العربى على أسس علمانية ونشر أفكار القرن التاسع عشر الأساسية .. وقد كان كتابه العظيم الأخير عن سعد زغلول، وهو مؤلف فذ فى تراث عبارة البطولة أشبه شئ بشاهد على ضريح عصر انقضى» (٥).

بل الأكثر من هذا أن مثقفينا كانوا قد دخلوا طيلة عقدى الثلاثينات والأربعينات مرحلة الميثولوجيا بالإغراق فى كتابة الإسلاميات بأغراض شتى بعد أن وجدوا تغيير المناخ السياسى وتراجعه، فقد استنفد الكفاح الثورى نفسه عبر تطور التجربة الليبرالية، مما انعكس معه تحول هذا الجيل الليبرالى إلى قوى محافظة سواء على المستوى السياسى أو المستوى الأدبى أو الفكرى فى غالب الأحيان.

وقد تفاوتت درجات السقوط بين رواد الليبرالية فى هذه الفترة غير أن العقاد لم يكن ليتردد عن الكفاح (بالقصور الذاتى)، ففى حين وقع فى أسر أحزاب الأقلية كان يوالى معاركه ضد النازية والفاشية، كما رفض السقوط فى أسر التيارات الراديكالية: أقصى اليمين (الإخوان) أو أقصى اليسار (الشيوعيون) وفى الوقت نفسه كان يكتب عن الديمقراطية فى الإسلام.

بَيْدَ أنه فى جميع الحالات كان قد تنازل عن بعض كبريائه فى هذه الفترة المضطربة حتى أنه ليذكر له بعض القصائد التى كتبت فى مديح (الفاروق) كما لم يترك فرصة تشيد بالملك أو تشير إلى مناسبة سعيدة له إلاويغرق فى الإشارة إلى سجاياه والإشادة به والثناء عليه، أنه يتحدث عن لقاء بالملك، ويذكر:

(إنه جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث، لأنه جو الملك والديمقراطية ممثلين فى شخصه الكريم أجمل تمثيل... (و) .. أيام الملك الزاهى).

وقد كال العقاد للملك من ألفاظ الثناء والمديح ما يعيب المثقف كثيراً فى الفترةالتى تحددت - خاصة - بعد الحرب العالمية الثانية، ورغم أنه حاول أن يتخذ بعض المواقف الوطنية فى نهاية الأربعينات (كأزمة عام ١٩٥٠) حين وقع على(عريضة) مصطفى مرعى، فإن العقاد كان يدخل منذ عام ١٩٣٦ فى خريف دائم فى علاقته بالنظام رغم تحولاته السياسية من موقف إلى موقف، لكننا نستطيع أن نرى أن حياة العقاد كمثقف ثائر أو متمرد متوثب انتهت بعام ١٩٣٦ لتبدأ بعدها صفحات أخرى من تحولات العقاد التى استبدل فيها بالمتمرد المتردد والمهادن والمساير .. إلى غير ذلك من التحولات التى سنقترب منها أكثر عقب قيام ثورة ١٩٥٢.

ومن هنا، فإن الاستجابة الأولى للعقاد للثورة، وهى التأييد، لم يكن

نابعاً من مواقف النفاق أو الوصولية أو - حتى - الخوف، وإنما من موقف الاقتناع بحركة جديدة - حتى لو جاءت من الجيش - لتغيير الأوضاع التى زادت من السوء إلى درجة البحث عن الثورة وانتظار أصحابها.

وهو ما يمكن معه فهم العلاقة الجدلية بين المثقف والسلطة.

وهو ما يمكن معه الاقتراب - أيضاً - من فهم حركة التاريخ المصرى المعاصر فى هذه الحقبة.

التحولات السياسية للعقاد

ان هذه التحولات تمنحُنا فهماً أكبرَ لاستجابات العقاد

وهى استجابات اتخذت مواقف ثلاثة يُـمكنُ أَن تُمثّلَ، فى مجموعها، حركات تُؤدِّى كلُ حركـة فيها إلى غيـرها فى (كونشرتـو) يمثلُ الأداء المنفرد Solo للعقـاد إذا استخدمنا القوالب الموسيقـية الحديثة علـى سبيلِ التمثيل ويمكنُ أن نحددَ هذه الحركاتِ على هذا النحو:

أولاً : المؤيد.

ثانياً : المهادن.

ثالثا : الصامت.

وهو ما نتمهلُ - أكثر - عند كل حركةٍ حَسْبَ ما تقدمهُ لنا.

...

١ -لم تكد تقوم ثورة يوليو حتى سعى لتأييدها عددكبير من السياسيين والمثقفين، وكان من بين هؤلاء عبد الرزاق السنهورى والسيد صبرى من أصحاب القانون، ثم كان عدد كبير من الليبراليين ممن لهم صلات بالوفد وفى مقدمتهم عباس العقاد وطه حسين ومحمد مندوروآل عبدالرازق وغيره، كما نستطيع أن نذكر عدداً كبيراً آخر من المثقفين من شتى الاتجاهات.

بيد أن التوقف أكثر - عند عباس العقاد- يعيدنا إلى موضوعنا.

والواقع أن تأييد العقاد لم يكن - كغيره - من باب التطلع إلى الإفادة من النظام الجديد، وإنما اقتناع بالحركة المباركة -وهذا هو اسمها الجديد - من أجل التغيير وتيمناً به بعد أن ساءت الأمور كثيراً(٧).

ونستطيع أن نرصد هذه الفترة الأولى لنرى أن تأييد العقاد لم ينقطع وهو تأييد يصفه الباقورى لعبد الناصر فيقول عنه:

(رأيت الرجل فى أول مؤتمر للثورة يعقد بدار "لطف الله"وهو يحمل قصيدة يحرص على إلقائها فى هذا المؤتمر تحية للثائرين)(٨).

وتتوالى صور التأييد فى عديد من المظاهر منها (المؤتمر الإسلامى).

- كان عام ١٩٥٥ من أهم أعوام النظام، إذ كان يواجه فيه الخطر الخارجى والخطر الداخلى الظاهر فى الإخوان.

والواقع أن هذا المؤتمر يعود إلى قبل ذلك بعام حين التقى عبدالناصر بحاكم باكستان بالسعودية وأصدر بياناً مع السعودية يدعو فيه إلى وحدة الإسلام ضد الغرب، وتكون المؤتمر بالفعل فى سبتمبر عام ١٩٥٤ وعين سكرتيراً عاماً له أنور السادات، وما لبث أن أصدر المؤتمر مع علماء المسلمين بياناً فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٤يدين فيه إرهاب الإخوان المسلمين.

ويكون أكثر ما يلفت النظر دفاع عباس العقاد عن المؤتمر الإسلامى إبان محنة الإخوان مع النظام، وهو دفاع لاينتمى إلى تأييد النظام الجديد فقط - وإنما أيضاً - إلى قناعات العقاد، إذا كان يتخذ منذ فترة مبكرة موقفاً مضاداً وعنيفاً من الإخوان.

ورغم أن هذا الموقف ما زال يحوطه الغموض (موقف العقاد من الإخوان) إذ أن هناك حلقة مفقودة بين هجوم العقاد على الإخوان وهجومه من قبل على النازية والفاشية، فمراجعة الوثائق الأمريكية فى الأربعينات والخمسينات تشير إلى أن الغرب كان يتخذ موقفاً مضاداً من الإخوان فى

وقت كان العقاد يهاجم فيه النازية والفاشية وهو الموقف المتوائم مع موقف الحلفاء من هتلر وجبهته.

وإذ التقى دافع العقاد الداخلى مع الدافع الخارجى، فقد أصبح هجومه على الإخوان تأكيداً لاتخاذه موقف النظام السائد وتأييده له.

ويكون علينا الآن أن نرى هذا الهجوم على الإخوان من منبر المؤتمر الإسلامى تأييداً لثورة يوليو، وقد سجل هذا الموقف فى عدد من المقالات فى هذا الوقت، وفى إحدى هذه المقالات تحدث عن حاجة الأمم الإسلامية إلى التعاون والتكافل والتنبه لخطر الاستعمار الخارجى ضد العقيدة والموارد والسيادة الاقتصادية والتفرقة العنصرية يؤكده لهذا مجئ المؤتمر الإسلامى فى أوانه، وربما يصح أن يقال إن المؤتمر الإسلامى يتحدد الآن وفى الوقت المناسب، ضاربا المثل بأن الإسلام فرض على المسلمين فى موسم الحج مؤتمراً عاماً.

والملاحظ أن العقاد وإن أيد المؤتمر الإسلامى لدوره فى مكافحة الاستعمار فإنه يرى أن هذا الدور لا يقل فى مهمته عن مكافحة العنف والجمود والأخذ بوسائل التقدم والارتقاء، فليس فى العصر الحاضر من يحمى نفسه وهو متخلف فى ميدان القوة والمعرفة[٩].

ولم يكن تأييده للثورة نابعاً من موقف معين، وإنما لقناعته الذاتية، ومن ثم فسوف نلاحظ أن الدفاع عن هذه الثورة أو الحديث عنها يتخذ شكلاً ذاتيا، ففى مقالة له فى الفترة الأولى من قيام هذه الثورة يُبدى الترحيب بهذا العمل الذى أظهر عن تغيير غير عنيف لم يعرف سفك الدماء يقول وهو يذكر مجلسا ضم عدداً كبيراً من المصريين قبل الثورة بأسابيع قليلة:

(فقال قائل: وما العمل؟ .. قلت إنها الثورة لا محيص منها، وليكن ما يكون! .. والحمد لله جاءت الثورة ولم يمض شهران وجاءت سلمية ولم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الأمور، وقد كان الخلاص من عهد الملك فاروق ضرورة لا تستكثر عليها أن تقدم الأمة فى سبيلها على

خسارة فى الأرواح والأموال، واضطراب الأمور شهوراً أو أكثر من شهور، فلما تكفل الجيش للأمة بالثورة التى كانت مطلوبة منها عوفيت من جرائرها وأهوالها)[١٠].

وهو لم يتردد فى نصرة الثورة فى كل المواقف التى اتخذتها، فحين اعتصم بعض النساء فى(نقابة الصحفيين) راح يتخذ موقفاً مع الثورة، فيرى الاعتصام ليس «من الوسائل الديموقراطية ولا من"البرلمانية" فى شئ»[١١].

وهو يصل من هذا كله إلى أن الثورة كانت بيضاء وابتعدت عن تفجير صراع اجتماعى عنيف يذهب بالأرواح ويفقد الناس الأمن والطمأنينة كما أنها -كما يلاحظ البعض - ثورة ذات طابع عسكرى فى البادية لكنها لن تستمر فى هذا الطابع العسكرى كما أن - وهو ما كان يحرص عليه العقاد لمقته للشيوعية - ثورة ٢٣ يوليو " قد رحمت المجتمع المصرى من ثورة شيوعية حمراء تعصف بكل شئ"[١٢].

وثورة يوليو فى كتابات العقاد الأولى أيضاً - رحمت المجتمع- أو كانت رحيمة بمجتمع الإقطاعيين.

بل أنه يصرح فى أكثر من مرة أنه لو عقل الإقطاعيون لحمدوا الله على هذه الرحمة لأنهم كانوا معرضين - لو لم تأخذ الثورة بالرحمة واللين - لما هو أعنف بكثير مما قامت به بالفعل.

غير أن صورة التأييد ممتزجة بكبرياء المثقف بدت أكثر وضوحاً فى تعرضه لكتاب عبدالناصر الذى أهداه إياه فى هذا الوقت (فلسفة الثورة).

إن أول ما يلفت النظر فى مقالة العقاد عن (فلسفة الثورة) هو العنوان الذى اختاره له، فبعد أن يكتب العنوان الرئيسى (فلسفة الثورة فى الميزان)يحدد عنوانه الثانى بهذا الشكل (العقاد ينقد كتاب جمال عبدالناصر)[١٣]، وهو ما ينفى صفة المجاملة أو الممالأة عن العقاد.

وبعد أن يستطرد حول الثورات السابقة : الفرنسية والتركية والصينية يتوقف عند الثورة المصرية، محبذاً الشعار الذى آثره (الانقلاب المصرى الأخير - لاحظ أننا الآن فى منتصف عام ١٩٥٤ وما زال يتحدث عن الانقلاب - هذا الانقلاب الذى قضى على حكم فاروق ثم قضى على حكم أسرته بحذافيرها، وهو شعار (الاتحاد والنظام والعمل)، ثم يتحدث عن العقبة فى طريق الإصلاح فيحددها بأنها العوامل المصطنعة التى لا تجرى مع الحق الواقع فى مجراه، ويعدد من أمثلتها بأنها «أسرة مالكة يقضى وضعها الصحيح أن تكون سلطة شرعية تحارب السلطة الفعلية بقوة الاحتلال، وتحسب أنها فى أمان من الثورة عليها ما دام الاحتلال فى البلاد».

ومن الأمثلة الأخرى التى يذكرها من العوامل المصطنعة وزارات الكثرة المزعومةوالتى «كانت تأتى على الدوام بطلب المحتلين لتسليم البضاعة»، ثم هناك - من العوامل المصطنعة ما يسهب حوله كتلك الغيرة الكاذبة على الفقير باسم المذاهب الهدامة ثم الدفاع الكاذب عن الإقطاع باسم التاريخ وباسم الدين .. إلى غير هذه العوامل التى جاءت الثورة من أجلها أو من أجل القضاء عليها.

وحين نصل إلى الكتاب نفسه، نلاحظ إنه لم يظهر نقداً حاداً على الكتاب رغم إيثاره كلمة (النقد) فى العنوان، فقال إنه قرأ الصفحات الثمانين «التى كتبها السيد الرئيس جمال عبدالناصر فى كتاب (فلسفة الثورة) فخرجت منها وأنا أعتقد أن الخلاف عليها أقل من خلاف فى مثل هذه الصفحات وفى مثل هذا الموضوع» بل نجده يدافع عن خروج الثورة بالشكل الذى فصله قبل ذلك ، فهو يحبذ رأى عبدالناصر بالخلاص من العنف ضارباً عدة أمثلة لتأكيده.

كما يشيد (بفلسفة الثورة) التى تخرج عن الأفق المصرى إلى الدوائر الثلاث التى تحدث منها وهى الدائرة العربية والأفريقية والإسلامية مؤكدا أنها لن تستطيع تجاهلها بأية حال (١٤).

بَيْدَ أن أحداث الثورة وما اضطرت إليه فى السنوات الأولى أدت بالعقاد من التحول من موقف التأييد إلى موقف المسايرة أو التهادن.

وهو ما تبدأ معه حركة جديدة.

٢ - كان التحول الثانى - من التأييد إلى المهادنة - قد بدأ يتبلور رويداً رويداً فى قلب الأحداث وفى تفاعلاتها.

كان النظام الجديد مغايراً للنظام السابق عليه أيديولوجياً وفكرياً، وقد كان هذا النظام الجديد غير مستعد للتهادن مع القوى القديمة، فلم تلبث أن دخلت فى صراع مع السياسيين القدامى، والمثقفين المنتمين - بحكم التوجه - إلى الأيديولوجية السابقة.

ولأن النظام الجديد كان ذا طبع عنيف مع خصومه، كان من الصعب إرضاء المعارضين، وفى وقت كانت سياسة ثورة يوليو الصواب والخطأ أو اعتماد التجربة فى تعاملها مع الأحداث، ومع مرور الوقت، ظهرت الطبيعة التسلطية للنظام على كثب من العقاد، فبعد الصدام بين العقليتين: العقلية الليبرالية القديمة والعقلية الثورية الجديدة، بدأت سلسلة من الإجراءات التى زادت من تحفظات العقاد الذى كان ما زال - يحرص على فكره الليبرالى المحافظ .. وكان أول ما أغضب العقاد إلغاء الأحزاب القديمة ثم قيام الثورة بتحديد الملكية، ومع الوقت مارست تأميم كثير من وسائل الإنتاج، ثم اتخذت القرارات الاشتراكية وفرض الحراسات تحطيماً للبقية الباقية التى قد تتعارض مع توجهها للسيطرة على مقاليد الحكم.

ويذهب هنرى مور فى دراسة هذه الفترة [١٥] إلى أن النظام الجديد رغم أنه حاول القضاء على التجربة النمطية قبل الثورة، فإنه لم ينج من

ممارسة هذه التجربة فى ممارساته، فوقع فى محظور الديكتاتورية، ومن ثم، فقد خلقت لها أعداء كثيرين بسبب افتقارها إلى بناء سياسى تحتى والاضطراب الحاد الذى حدث فى هذه الفترة.

والواقع أن العقاد الذى كان قد رحب بالثورة حال قيامها لحظ هذا كله، خاصة فى السنوات الأولى من قيامها، بل بدا مستعداً لقبول العديد من قضاياها، غير أن أسلوب الثورة حال بينه وبين الاستمرار فى هذا التأييد.

وهو ما بدا أكثر وضوحاً على المستوى الشخصى، إذ عانى المثقفون خاصة من قهر النظام الجديد، وواجه هو شيئاً يشبه القهر الفكرى Intel-lectual Coercion فى وقت كان - كما أسلفنا - يتسم بكبرياء المثقف وقد كان هذا الكبرياء هو (مفتاح) هذه الشخصية القوية التى تنتمى إلى مجتمع مغاير.

وكان أكثر ما أغضبه، أن سياسة الثورة من المثقفين القدامى كانت الإهمال، فلم تسع إلى الإفادة منهم إفادة فعلية، ومن أفادت منه،كان لذر الرماد فى العيون فى مناصب شكلية لم تلبث أن أعفتهم منها.

وفى إهمال الثورة لأولئك المثقفين يمكن أن نذكر المثقفين الليبراليين ممن لعبوا أدواراً حيوية فى الماضى من أمثال طه حسين وسلامة موسى والعقاد نفسه.

ورغم أنها أهملتهم (بأدب شديد) فإن ذلك كان له وقع الإيلام على العقاد مما جعله يتخذ موقفاً أقل تأييدا بشكل مباشر كما كان يفعل.

وعلى العكس من إهمال الثورة لهم، فقد كانت - فى فترات الأزمات الكبرى- لا تتردد فى استخدامهم لتكريس ما تريد على المستوى الداخلى أو الخارجى.

وسوف نشيرفى هذا إلى مثل واحد يؤكد نهج الثورة فى التعامل مع مثقف مثل العقاد بما يتنافى مع طبيعته، وهو ما أشير إليه إبان معارك الثورة

مع أعدائها، ومن ذلك ما يرويه أحمد سعيد(المسئول عن صوت العرب) وكان ذا علاقات وثيقة بعبد الناصر والمخابرات المصرية بشكل شخصى فى ذلك الوقت.

كانت قضية "الولاء" للنظام السائد هى المحك الرئيسى الذى يعتد به من النظام لاختيار مثقفيه أو الرضاء عنهم، وهذا الولاء كانت له شروط معينة لم يكن ليعرفهاكاتب قوى كالعقاد، ومن ثم ففى الأزمات الكبرى، كان من المنتظر أن يسهم فيها تأييداً للثورة، بَيْدَ أن بعض هذه الأزمات كان يرفض أن يستخدم فيها (كأداة) دون المرجعية(الفكرية) .. ففى إحدى الأزمات عام ١٩٥٥ مع الغرب، وكان لابد أن يواجه النظام المصرى نظام نورى السعيد المتحالف مع الغرب، وكان لا بد من استخدام مثقفين من أمثال فكرى أباظة وطه حسين والعقاد ومحمد عوض - ضمن المثقفين الآخرين - فى (تعليقات).

وقد كان الاستخدام يعزى به من صلاح سالم شخصياً - وهو الرجل العسكرى الأول فى ذلك الوقت،إذ يحكى أحمد سعيد أنه جاءه صلاح سالم ليسأله عن أولئك المثقفين الذين لا يحشدون جهودهم إلى جانب النظام، وطلب أن يوجه هؤلاء إلى الإذاعة ليلقوا "بأحاديث" تؤيد النظام وتهاجم أعداءه[١٦]، وحين أبلغه أحمد سعيد بأنه لا يجدى ذلك فى "تعليقات" على الحدث وإنما فى "أحاديث" رفض صلاح سالم.

كانت لهجة صلاح سالم تنم عن أمر عسكرى وعن صورة فنية (تعليقات) على الحدث بشكل يظهر المثقفين بصورة غير طيبة، أو بصورة من ينحاز للنظام بدون تفكير أو فكر، وهو ما كان يسئ للمثقفين كثيراً.

لم يجد مسئول الإذاعة غير أن يذهب إلى العقاد - ضمن مثقفين آخرين - فرفض العقاد على الفور.

تركه يوماً أو اثنين ثم عاد إليه فوجده رافضاً تماماً.

يعبر أحمد سعيد عن هذا الرفض بقوله:

(حين فاتحت الأستاذ العقاد وجدته "مزرجن" جداً).

لاحظ لهجة الحوار ودلالة كلمة (مزرجن) التى نطق بها مندوب القيادة والمسئول الإذاعى.

- عدت إليه مرة أخرى - يضيف أحمد سعيد - وجدته (مزرجن) جداً جدا.

كان المسئول الإذاعى مخولا من القيادة العسكرية بأن يتعامل مع هؤلاء المثقفين بشكل حاسم، تظهره هذه الكلمات:

- عدت إليه لمرة أخرى، فوجدته كما هو هددته، قلت له أنا هابلغ..!!

لقد ظهرت الثورة أنيابها للمثقفين الشيوخ أن يتعاونوا، ويظلونا يتعاوتون بدون شروط وإلا - تبدأ لهجة التهديد - ستتخذ إجراءات ضد أعداء الثورة ..

لم يكن أمام العقاد غير أن يسايرالموقف، ولم يجد أمامه غيرالمهادنة على مضض، ذهب ليدلى بأحاديث كاملة وليس تعليقات، تصب كلها فى طاحونة النظام ضد أعدائه كانت التبعية كاملة بالنسبة للإعلام، واختارت الثورة أن تكون التبعية كاملة بالنسبة للمثقفين، فطابع (الولاء) الخالص لابد أن يحل دون أى طابع آخر.

وعلى هذا النحو، تراكمت أحداث وأوامر كثيرة لتحول المثقف المؤيد إلى متعاون - شاء أو لم يشأ- وهو ما دفع العقاد فى السنوات الباقية له إلى اتخاذ الموقف الأخير، أو الحركة الأخيرة فى الأداء، ويتحول إلى مثقف صامت ودخل عباس العقاد، فى عالم الصمت البليغ.

٣- هنا يبدأ الموقف الأخير ..

وهو موقف بدأ بصدمات كثيرة كانت مفاجأة بالنسبة إليه، ففى العصر الليبرالى - رغم تحوله أكثر من مرة - لم يعان درجة من درجات القمع

السياسى التى عرفها فى ذلك الوقت، بدليل استمرار التعبير عن السخط فى النصف الأول من هذا القرن، من جانب المثقفين، واتخاذ إجراءات لينة، مهما تكن قسوتها، من جانب السلطة.

لقد كانت إجراءات العنف ضد المثقفين محدودة إلى حد ما، واقتصرت بالنسبة للعقاد نفسه - فى أقسى درجاتها - على السجن لعدة أشهر خرج أكثر شهرة وصلابة بعد أن هاجم الملك فؤاد نفسه هجوما عاتيا .

وقد توالت الآن ممارسات عديدة أفزعته: كفر الدوار وإعدام العمال، محاولات التطهير التى نالت الكثيرين، قوانين العزل السياسى، اعتقال المثقفين ونفيهم، نفى أو طرد أساتذة الجامعة فضلا عن الممارسات الأولى - التى أشرنا إليها - من إلغاء النظام الحزبى وتحديد الملكية والتأميم . والعقاد له رأى - بحكم تكوينه الفكرى - مخالف لمثل هذه الإجراءات الاقتصادية أسهب فيها (١٧).

الواقع أن المثقف الصامت هو من أكثر المثقفين تعرضا لحالة القهر السياسى Political Coercion وفى حالة العقاد، أحس بهذا الصراع الداخلى بين اعتزازه البالغ بنفسه وتعاظم قناعاته الفكرية وفعل السلطة الخارجية وعنتها السياسى ضده، وقد نتج عن هذا حالة من الحس الطاغى بالهوان أسلمته إلى الصمت والانسحاب من الساحة بعد أن كان يتوسط باحتها .

إن الانسحاب أو الصمت هنا كان (موقفا) أو رد فعل لما عاناه العقاد وهو وإن بدا سلبيا، فإنه يظل أكثر دلالة عن موقف الآخرين من نفس جيله كطه حسين الذى تحول عشية الثورة من التمرد إلى التأييد وغالى فيه حتى أصبح (ضد) تاريخه كله فى الفترة الليبرالية (١٨) وقد كان فيها فارسا مغوارا.

لقد أدت إجراءات النظام بالعقاد إلى هذه النوع من الصمت أو

الانعزال فى حالة أشبه بالتقهقر إلى البرج العاجى الذى صنعه لنفسه، فلم يمارس من مظاهر الحياة السياسية أو الفكرية إلا لقاءه بمثقفيه ومريديه كل (جمعة) بمنزله، مكتفيا فيها بالتعبير عن قضايا العصر وإن لم يخل الأمر من هجوم على النظام لم يتعد حالة (التنفيس) عن الذات فى هذه الهجرة الداخلية التى اختارها لنفسه .

وتفسيره أن العقاد لم يستطع أن يعبر عن رأيه (بل أمر أن يعبر عن الثورة ويكون بوقا لها)، كما أنه لم يستطع أن يواجه الدولة بغضبه إذ أدى القهر السياسى دوره فى اتقاء شر الدولة.

كان العقاد طاقة هائلة، غير أن تكوينها وتحولاتها كانتا تباعدان بينه وبين جيل آخر من جيل الأبناء الذين كانوا قد تربوا فى الكليات العسكرية وتشربوا قيما مغايرة، وجاءوا الآن يمتلكون السلطة رافضين أية سلطة (بطريريكية) تنال من حريتهم فى الفعل اليومى المستمر المتغير.

ومراجعة كتابات العقاد فيما تبقى من الخمسينات والستينات حتى رحيله قرب منتصف الستينات، نلاحظ، أن كتاباته اتسمت بقضايا عقيدية تقترب من الإسلام وشخصياته أو القضايا العامة، تقترب أحيانا من الأمور العامة وسفاسف الحياة بل إنها تثير موضوعات لا علاقة لهابفكر (العقاد) قط.

لقد أغرق العقاد نفسه فى قضايا من مثل الحديث عن جائزة نوبل وعالم الكف وطوالع العالم والإسلام والحضارة الانسانية ومطالب المرأة وعصر الصيام وتكريم الفن والشباب ليته يعود وغير ذلك فى السنوات الأولى من الخمسينات حين أحس بالتنافر بين فكره وفكر النظام الجديد، ومالبث ان أغرق أكثر فى مقالات وكتابات من نوع: الدنيا حر[19]، الطربوش للحفلات التنكرية [20] ومورفين الحب [21] وحمام التلات اللى يرجع العواجيز بنات [22] خوارق خط اليد [23] وتهريب الحشيش

فى السجون (٢٤) وأسئلة الأطفال - مقالب شويكار(٢٥) و(الفشرة) التى أصبحت اكتشافا حربيا (٢٦)، وهل فى القمر بترول (٢٧)وفنان الجنس مصاب بالعجز الجنسى (٢٨)، وتحضير الأرواح(٢٩) ولست أريد المقارنة التى تثير الغيرة بين بنات حواء (٣٠) وخناقة على النمسا. ونشيد إخناتون (٣١) والحمار العاشق (٣٢)، ووصلت الأمور إلى السفح حيث توالت فى نهاية حياته مقالات من نوع كذبة أبريل (٣٣) وماركة البنت فى أغنية اليوم(٣٤) والمرأة والحب(٣٥) .. وما إلى ذلك حتى أنه كتب عن الشطرنج والفكاهة وما إلى ذلك من الكتابات التى كانت تتجمع فى عدة أعمدة فيضعها بجانب بعضها البعض ليصنع منها مقالة طويلة.

كان الهروب فى مثل هذه الكتابات يترجم موقف الصمت الذى آثره بعيدا عن القضايا السياسية أو الاجتماعية التى لا يرضى عنها نظام جائر مغاير لطبيعته إلى حد بعيد.

ومن صور الصمت أنه فى السنوات الأخيرة لم يتعرض للقضايا العامة إلا بقدر ما تفرض عليه ، وعلى سبيل المثال، فإنه يلاحظ حين اعتدى أحد الإخوان على الرئيس جمال عبد الناصر، وراحت الصحف والصحفيون والكتاب يتبارون للحديث عن عناية الله التى أنقذت جمال عبد الناصر كان العقاد يوسط اسمه فى موضوع كبير يملأ الصفحة الخامسة من أخبار اليوم بعنوان (مذكرات أغاخان) ويتحدث فيه فى هدوء شديد عن مجوهرات الخديوى عباس وسلامتها .. وما إلى ذلك (٣٦) .

لقد اكتشف المثقف - بسرعة -أنه يختلف مع هؤلاء العسكريين الذين يرفضون أن يعودوا ثانية إلى ثكناتهم، والذين يفرضون -منذ البداية- مبدأ (الولاء) ليستأثروا (بأهل الثقة)؛ ومن ثم، فإنه آثر هذا الموقف الذى لم يكن سلبيا - كما يزعم البعض - وإنما وجد نفسه مختلفا تماما مع النظام، ومن ثم ، آثر السكوت والصمت .

خاتمة (مفتاح الشخصية)

وعلى هذا النحو، فإن مفتاح الشخصية هنا، وكان العقاد مغرما بالبحث عنها فى كتاباته خاصة (عبقرياته) هى الشجاعة وليس الارتداد أو المسايرة على طول الخط، ولا حتى السلبية، وهذه الشجاعة بدت فى فترات الثورة الأولى، حين أيدها الجميع فأيدها العقاد متوسما فيها الأحلام المجهضة لهذا الجيل فى الثلاثينات والأربعينات،وراح يسايرها حين حاولت أن تمارس عليه بعض صور القهر السياسى الذى كان لا يتمشى مع تكوينه الذاتى، ومالبث أن ترك هذا كله إلى (هجرة داخلية) اكتفى فيها بالصمت عن المشاركة فى القضايا التى تغضب السلطة الحاكمة، وفى نفس الوقت يعبر بالصمت عما يريده لمريديه، وكثيرا ما كان يخرج من صمته مع خاصته ولا يلبث أن يعود إليه ثانية

ومن الإنصاف للثورة أن نقول إنها، مع يقينها بموقف العقاد، لم تحاول أن تضيق الخناق عليه أو ترهبه، بل إن جامعة القاهرة شهدت فى ديسمبر من عام ١٩٦٠ العقاد وهو يتسلم من رئيس الجمهورية (جائزة الدولة التقديرية)(٣٧).

وكان على الحاصل على الجائزة أن يلقى كلمته، فراح فى اعتداد شديد يتحدث وفى أدب جم، أيضا ، حتى إن الحاضرين لم يسمعوا ما تعودوا أن يستمعوا إليه فى مثل هذه المناسبات من توجيه واجب الشكر إلى حد التزلف.

إن نص الكلمة التى راح صاحبها يلقيها قدمت الشكر، لكنها لم تقدمه لشخص بعينه.، لم يسمع توجيه الشكر لرئيس الجمهورية، يقول: إنه لمقام يستوى فيه الإطناب والاقتضاب ويتلاقى فيه الابتعاد والاقتراب فمهما يكن من وفاء واحد من الآحاد .. فما هو بكفاء حق الألوف شاهدين وغائبين، وحق المستمعين اليوم والمستمعين بعد حين ..(٣٨).

وحين يوجه الشكر بعد ذلك فهو يوجهه إلى « فريضة الشكر على

النعمة الكبرى واليد الطولى، نعمة الوعى القومى الذى وعانا فوعيناه ورعانا فرعيناه»

ويروح يتحدث عن اختيار الجوائز التى تعود إلى جمهرة القراء وصفوة العلماء . وحين يأتى ذكر الحاكم أوالسلطان فى تاريخ فإنه يرفض مثل هذه الصور التى كان «ينعم فيه السلطان بطيالسة المجد والعظمة، بل بمسوح الزهد والتقوى، فإذا بالمنعم مجيدا ولو كان فى ذل العبيد .. (و) .. فالحمد لله على ما ألهم هذه الأمة من وعى .. «إلى آخر كلمات الشكر والحمد للأمة التى فيها (جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم)

وعلى ذلك، تصل الشجاعة بالشيخ إلى أقصاها، فهو لا يتهيب سلطانا مهما تكن نعماؤه، كما أنه لا يرى أن جمهورية الفكر قرين لجمهورية الحكم فقط، وإنما يرى ان جمهورية الفكر متقدمة على جمهورية الحكم، وبهذا، فإنه لا يتنازل قط فى مثل هذه المناسبات التى يقال فيها كلمات (مناسبات) لإرضاء الحاكم .

إنه يتحدث عن تقدير الفكر وليس عن تقدير الحكم، ويردد إن (جوائز الأمة مرادفة الدولة) ولا يخشى فى التعبير شهود المناسبة أو أصحابها.

وهنا نكونُ قد انتهينا إلى أن العقادَ، فى شجاعته، استطاع أن يمثلَ – فى عَلاقة المثقف بالسياسة – مصدراً هاما من مَصَادر التاريخ الفكرى ، الذى نحاَول أن نَفصله، فقد تحول المثقف إلى الصمتَ هنا نتيجة التناقض القائم بين المثقف والسياسى، ومن ثم، أسلم ذلك مثقفا كالعقاد إلى حالة من (الاغتراب) لم يستطع التواؤم معها فى مجتمعه .

على أن الاغترابَ لم يخلُقْ – بطبيعة الأشياء – حالةً من الراديكالية لدى المثقف، فقد كانت تقاليدُ الفترة الناَصرية تحَولُ بينه وبين التعبيرِ عما يريد، ومن ثمّ، زاد اغترابُه، وزادت عَزلتهُ .

ليس من النظامِ فقط ، وإنما – أيضا – من المجتمعِ.

هوامش

(١) الطليعة ، ٣/ ١٩٦٦

(ومواقف العقاد/ المثقف من الزعيم / الحاكم أكثر مما ترصد، وقد وصفه سعد فى إحدى المرات بأنه (الكاتب الجبار)، إذ كان كاتب الوفد الأول الصلب العنيد العنيف، صاحب الكبرياء والجرأة النادرتين .)

(٢) عامر العقاد، أحاديث العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بدون أيضا، انظر : روز اليوسف ٢٢/ ١٠/ ١٩٥٦

(٣) آخر ساعة ١٤/ ٨/ ١٩٧٥ ، السابق ص ٤٧-٥٠

(٤) أحمد حسن الباقورى، بقايا ذكريات، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة / ١٩٨٨ ص٢١٥

(٥) لويس عوض، الثورة والأدب، روز اليوسف ، يوليو ١٩٧١ص١٦٢

(ويقول لويس عوض فى موضع آخر إن العقاد، وبقية رواد الليبرالية - قبل عام ٣٦ -،كان قد أتم رسالته الأدبية خاصة، فقد كان العقاد قد وضع « الفصول » «والمطالعات» و«المراجعات» و«ساعات بين الكتب» و«ابن الرومى»، كما وضع ديوانه وحى الأربعين وهدية الكروان قبل ١٩٣٦ ثم تخصص بعد ذلك حتى قيام الثورة فى الدعوة العقائدية وفى كتابة السير)ص١٣٢

(٦) مصطفى عبد الغنى ، المثقفون وعبد الناصر، دار سعاد الصباح١٩٩٣ ص ص٨٠،٨٢ . ويلاحظ الكاتب هنا أن نفاق العقاد وصل إلى درجة بالغة من الإيغال فى مديح الملك، وقد أصبحت إحدى كتاباته وخطبه أمام الملك مما يذكر ضد العقاد قبل الثورة وبعدها، ونستطيع أن نعود إلى صحف هذه الفترة لنلاحظ كتاباته فى النفاق للملك فى صحف الكتلة٢٩/ ١/ ٤٥،١٠/ ٢/ ١٩٤٥،وروزاليوسف ١٦/ ١٠/ ١٩٤٤، الكتلة ٢١/ ١٢/ ١٩٤٤،١٤/ ١٢/ ١٩٤٤)، بل نشرت له من القصائد التى يندى لها الجبين إشادة للملك، مثل هذه القصيدة التى جاء فيها :

فدته البلاد وفدى البلاد ... بعالى التراث وغالى القيم

مليك يلوذ به عرشه ... وكم ملك بالعروش اعتصم

إلى آخر ما فى هذه القصيدة وغيرها مما دفع بسلامة موسى الى نقل القصيدة كلها فى كتابه (الأدب الشعبى ص٩٣) (انظر الأهرام ٢١/ ٩/ ١٩٤٧)وقد راح العقاد بعد ثورة يولية ينكر مثل هذه الصور من النفاق الشديد، ويزعم أنه راح يلعن (أبا) الفاروق فى أكثر من مرة فى (أخبار اليوم) فى السنوات الأولى من قيام الثورة »

(٧) مصطفى عبد الغنى ، السابق ص٢٠٢ وما بعدها

أيضا : يمكن مراجعة صحف ودوريات هذه الفترة

(٨) الباقورى ، السابق، ص٢١٤

(٩) مجلة الهلال، يونيو ١٩٥٥ ص١٠- ١٣ بعنوان (المسلمون والمؤتمر الإسلامى) للعقاد

(١٠) الهلال ، ديسمبر ١٩٥٢

مقالة بعنوان (الجيش وقائده)، أيضا انظر كتابات هذه الفترة

(١١) اخبار اليوم ٢٠/ ٣/ ١٩٥٤

(١٢) رجاء النقاش، عباس العقاد بين اليمين واليسار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٧٣ص٣١٦

(١٣) لاشك أن العقاد كان صاحب كتابة (العناوين) لمقالاته ، وهو - بالتبعية- كان واضعا لهذا العنوان، فقد كان أكثر ما يحرص عليه قبل الكتابة أن يكتب العنوان واسمه بالبنط الكبير ثم يبدأ فى كتابة المتن وهو ما أكده لى كل من عامر العقاد - ومحمد حسن الزيات - رحمهما الله)

(١٤) آخر ساعة ٣٠/ ٦/ ١٩٥٤(انظر الملحق)

(١٥) Moore, Clement,Henry, Quthorarian politics, in incoporated society the Case of Nasser,s Egypt, Comrative politics April 1974

(١٦) محضر نقاش مع الأستاذ أحمد سعيد المسئول فى الفترة الناصرية عن (صوت العرب) ٢٣/ ٣/ ١٩٨٧

(١٧) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية، القاهرة ١٩٦٧

(وهى مقالات نشرت فى دوريات مختلفة إبان قيام الثورة وممارسة إجراءاتها نشرت فى دوريات (الكتاب) و(الهلال) و(صوت الشرق) و(الوادى) و(قافلة الزيت) بين ١١/ ١٩٣٥و ٤/ ١٩٦٤ وبث فيها أغلب أفكاره السياسية التى اختلف فيها مع الثورة ، أيضا انظر : رجاء النقاش ،والسابق ص٣١٠ وما بعدها

(١٨) انظر دراسة هامة لطه حسين (طه حسين وثورة يوليو، دار التراث، مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة ١٩٨٩) حاول فيها المؤلف - مصطفى عبد الغنى - رصد (صعود المثقف وسقوطه) وبين كيف سقط طه حسين تماما فى الفترة الناصرية، وهو سقوط لم يبرره صعوده فى الفترة الليبرالية - السابقة -

(١٩) الأخبار ١٠/ ٦/ ١٩٥٥

(٢٠) الأخبار ٢٢/ ١٠/ ١٩٥٥
(٢١) الأخبار ٢٧/ ١١/ ١٩٥٥
(٢٢) أخبار اليوم ٣/ ١٢/ ١٩٥٥
(٢٣) الأخبار ٢/ ٧/ ١٩٥٦
(٢٤) الأخبار ٢٠/ ٨/ ١٩٥٦
(٢٥) الأخبار ١٤/ ١٠/ ١٩٥٧
(٢٦) الأخبار ١/ ٩/ ١٩٥٨
(٢٧) الأخبار ١٩/ ١/ ١٩٥٩
(٢٨) الأخبار ١٥/ ٢/ ١٩٦٠
(٢٩) الأخبار ١١/ ٤/ ١٩٦٠
(٣٠) الأخبار ٦/ ١٢/ ١٩٦١
(٣١) الأخبار ٢٦/ ٩/ ١٩٦٢
(٣٢) الأخبار ٤/ ١/ ١٩٦٣
(٣٣) الهلال ٤/ ٣/ ١٩٦٣
(٣٤) الأخبار ٢١/ ٨/ ١٩٦٣
(٣٥) روزاليوسف ٣١/ ١١/ ١٩٥٥
(٣٦) أخبار اليوم ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٤
(٢٧) والإنصاف يقتضينا أن قرار اللجنة جاء فيه :(إذا كان العصر الذى نعيش فيه عصر الديمقراطية ، فقد دافع الأستاذ عباس محمود العقاد عن الديمقراطية دفاع المؤمن بها..) – انظر : الطليعة ٣/ ١٩٦٦
(٣٨) نشرت كلمة العقاد فى أكثر من دورية (على سبيل المثال : الهلال فبراير ١٩٦١، ومجلة المجلة يناير ١٩٦١) كما ضمنها سامح كريم فى كتابه (العقاد فى معاركه الأدبية والفكرية – دار القلم، بيروت ط١/ ١٩٨٠) وإن كانت الملاحظة الجديرة بالاهتمام أن أيا من هذه الدوريات لم ينشر (نص كلمة العقاد) بالنص، ومن ثم، فإن أكثر كلمات العقاد شجاعة وجرأة افتقدناها من صحف هذه الأيام، وإن كانت تنقل أو ينقل بعضها هنا او هناك، مثل هذه الكلمة التى ذكرت فى أكثر من مرجع حين يقف بين يدى (الرئاسة السامية) ليقول فى صوت لا يعلوه اضطراب (لأن الأمة قرأت فقدرت فقررت) وما إلى ذلك دون أن يعير القيادة السياسية اهتماما اللهم إلا إذا كانت تابعة للقيادة الفكرية.
وبذلك ، فإن راديكالية العقاد لم تظهر إلا فى (شجاعته) أمام الحاكم، وتترجم فى (حالة) اغتراب عن المجتمع .وبهذا يتحدد دوره أو موقفه (كمصدر) للتاريخ .. وهو مصدر من نوع نادر.

عبدالله النديم
الثائر والغرب

«.. فيالعدل الإنجليز وأحكامهم»

النديم

[١]

بين عامى (١٨٤٣ - ١٨٩٦) ولد وعاش عبدالله النديم

وفى هذه الفترة شهدَ التاريخُ المصرىُ أكثرَ فترات الصراع الوطنى بين مصرَ والغرب ، وهو صراع اتخذَ فيه عبدالله النديمَ - أحد رواد عصرِ النهضة الثانى فى نهاية القرنِ التاسع عشر - موقفاً محدداً من الغربَ .

كانَ المُثقفونَ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر يقفون - فى الغالب - موقفَ الإبهار بالغرب والإعجاب به ، حتى إذا ماكشفت الدولُ الأوربيةُ عن أغراضها الحقيقية فى استعمار الشرق والسيطرة عليه ، حتى كان مُثقفو هذه الفترةَ - وفى مُقدمتهم النديم - قد أضاف إلى الإعجاب بالغرب تخوفاً منه ، فقد مضى مُنتصفُ القرن بتنبيه رفاعة الطهطاوى إلى أن الغربَ لايعنى خطراً سياسياً وإنما هو خطر خُلقىَ فقط ، حتى إذا ماجاء الجيلُ التالى. أضاف إلى الخطرِ السياسى الخطرَ الفكرىَ ، فإذا بعبدالله النديم تلميذ جمال الدين الأفغانى ومريد محمد عبده وصديق محمود سامى البارودى .. قد أدرك خطورةَ الغربَ مما عمّق لديه هذا الإحساسَ بالثُنائية بين أطماع الغرب وحضارته .

كانَ الغربُ قد خَلَعَ مُسوحَ الحضارة ، وارتدى زىَ المُستعمر ، وتُحَدِّدُ السنواتُ بين عامى ١٨٧٥ - ١٨٨٢ فى مصر لتأكيد هذا الفعل ، إذ سعت الدولُ الغربيةُ للسيطرة على أملاك الإمبراطورية العثمانية ، بل لم تَعدْ هذه الإمبراطوريةُ قادرةً على حماية ولاياتها ، وكان أبرزَ الدلالات على ذلك احتلالُ فرنسا لتونس عام ١٨٨١ ، واحتلالُ إنجلترا لمصرَ بعدَ فصول طويلةِ حزينةِ من السيطرةِ على الحاكم ووطأةِ الديون وتهديدِ الثغور،

وعلى ذلك ، كان قد أدرك المُسلمون أن إحدى خصائص الأُمة كونُها مُجتمعا سياسياً يعبر عن نفسه فى جميع مظاهر الحياة السياسية ، وأن هذا المُجتمعَ إنما يزول بفقدان السُلطَة والسيادة . لذلك شغلت قضية الانحطاط عقولهم دوماً . أما الآنَ ، فقد اقترنت بها قضية جديدة هى قضية البقاء (الفكر العربى فى عصر النهضة ، ص١٣٢) .

كان الغرب يسعى - على النقيض من الشرق الإسلامى - للسيطرة على هذه المساحات الشاسعة التى تقطنها الشعوب الشرقية ، وعرف النديم فى ذلك الوقت - بتعبير دقيق - المصير الذى يُمكن أن تنتهى به بلد كمصر على إثر الاحتكاك بهذا الغرب «دخول مصر السوق الرأسمالية العالمية ، واكتساب القطن لأسواقه خاصة خلال الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وما استتبع ذلك من احتدام الصراع الإنجليزى الفرنسى على أرض مصر ، وهو الصراعُ الذى كان قد بدأ رسمياً مع نزول نابليون على الأراضى المصرية فى يوليو عام ١٧٩٨ » (ندوة النديم ، المجلس الأعلى للثقافة مايو ٩٥) .

ومن ثمَّ ، عرفت بداية السبعينات من القرن الماضى بدايات التدخل فى الشئون الداخلية المصرية - المالية وبوجه خاص - مما خلق أزمات ، وتفاقم أحداث انتهت أخيراً بخلع الخديوى إسماعيل عام ١٨٧٩ ..

وقد تبع ذلك ارتفاع المد الوطنى إلى أقصاه ، حيث شارك فى هذا عدد كبير من المُثقفين بدأ بجمال الدين الأفغانى الذى أشعل فترة السبعينات من القرن الماضى مروراً بكل تلامذته ومُريديه كمحمد عبده وعبدالسلام المويلحى وقاسم أمين وعبدالله النديم وصولاً إلى سعد زغلول الذى لعب دوراً رائداً ضد الاستعمار الإنجليزى فيما بعد ..

ففى هذه السنوات الماضية عرفت مصراستكمال مؤسسات مدنية كثيرة،

ومؤسسات ثقافية ومظاهر أوروبية للحضارة والسياسة ، وصحف متنوعة، واجتماعات متوالية للمُثقفين والسياسيين من النُخبة الفاعلة ..

غير أن هذه الفترة كانت قد تركت في الوجدان المصرى آثاراً عميقة اهتز لها الكيان المصرى كله ، إذ كانت جُملة المُتغيرات التى بدأت منذ مُنتصف هذا القرن وقبلها بكثير - مع عشرينات القرن الماضى مع حركة البعثات وإنشاء المدارس العُليا ..إلخ - قد بدأت تتحول إلى ردود أفعال وطنية تبلورت فى قيام الثورة العُرابية أو عبرت عن نفسها فى طرح الكثير من التساؤلات التى كانت إجاباتها تتنوع وتتلون حسب كل موقف ..

وقد زاد من خصوبة هذه التساؤلات والإجابات التى تولت الأحداث التعبير بها هذا المناخ الذى عاش فيه النديم منذ خروجه من الأسكندرية وهى تموج بالأجانب إلى القاهرة وهى تموج بالنخب الجديدة ، وتجمعت كلها حول الواقع الجديد .

وعلى ذلك ، لم تكن من المُصادفة أن تتحدد الأسئلة التى طرحت فى هذا الوقت حول سؤال البقاء :

ما هو الغرب ؟ ثم كيف يُمكن للدول الإسلامية مُقاومة الخطر الغربى الجديد ؟

لقد تحولت أوروبا الآن من نموذج حضارى إلى نموذج خطر على الأمم الشرقية نفسها ، وتصدى الكثير من الغربيين لتأكيد هذا الواقع الجديد بالتقليل من الإسلام ، والإرهاص بأن الحضارة تختلف عن الإسلام ، ومن ثم حاول الغرب حينئذ أن يُدخل فى الروع مسئولية الإسلام عن التخلف الذى يعيش فيه المسلمون ، ومن هنا ، نشطت هذه المناظرات التى أرادت أن تقول بغير ذلك ، إن جمال الدين الأفغانى فى مُناظرته مع رينان كان يسعى إلى تأكيد الدور الإيجابى للإسلام إذا ما أحسن فهم أن المدنية الغربية مُطابقة للإسلام ، كذلك فإن قاسم شُغل بمعركة مع آخرين مثل

هذه عن (المصريين) ، وهنا لانفقد جهداً لدى عبدالله النديم لتأكيد جوهر الإسلام وإشراقه مع صديق فرنسى لم يُذكر اسمه فى كتابه (كان .. ويكون) الذى كتبه فى منفاه على أثر هزيمة الثورة العرابية وهروبه قرابة عشر سنوات مُتخفياً ومنفياً فى البلاد .

بيد أن النديم فى تأكيده للوجه الإسلامى الإيجابى لم يقع فى خطأ أن الحضارة الغربية لها وجه واحد مُتجانس ، أو أن الحضارة الغربية تسعى إلى الاستعمار والسيطرة فقط ، أو أن فلسفتها تقوم على التدمير والعنف دون أن يلتفت إلى مافى هذه الحضارة من قيم إيجابية لايُمكن إغفالها ، فى وقت لايُمكن فيه إغفال الهوية العربية للوصول إلى فهم واضح لما يحدث حوله .

ومن هنا ، يمكن تلخيص فلسفة عبدالله النديم من الغرب على هذا النحو :

أ - للغرب وجه مُظلم/ مُستعمر

ب - للغرب وجه مُضىء/ مُتحضر

وكان مع هذا لايتردد على تأكيد أننا فى فهم هذا الجيل لابد من أن ينتبه لتكوين (هوية) عربية يُمكن أن يسلبها منا الغربُ المُستعمرُ ، كما يُمكن إثراء هذه الهوية إنسانياً إذا تنبهنا إلى التجربة الإيجابية المتحضرة للغرب .

وهو ما اختلط فى وعى النديم خلال كفاحه اليومى ضد الغرب ، وتجربته الإيجابية التى كان قداستخلصها من فضاء هذا التغير الضخم حوله وهو مانتمهل عنده أكثر .

[٢]

رُبما كان الأفغانى أكثر رجال عصره تأثيراً فى النديم ، إذ أن مُراجعة حياة النديم المُتقلبة وأفكاره المُتغيرة ترينا أن فكر الأفغانى كان أكثرتواؤماً

مع فكر تلميذه النديم ، فقد دفع به للتنبه إلى «خطر التدخل الأوربى والحاجة إلى الوحدة الوطنية لمُقاومته ، والسعى إلى وحدة أوسع للشعوب الإسلامية ، والمُطالبة بدستور يحد من سُلطة الحاكم . كذلك التشجيع على الكتابة وإصدار الصحف وتكوين رأى عام» (حوراني ، ص١٣٨) ..

غير أنه من المؤكد أن النديم ، رغم تجاربه التى بدت محدودة بالنسبة لتجارب الأفغانى وخبرته الطويلة ، كان أكثر من أستاذه وعياً بالجماهير العريضة ، ومن ثم ، أضيف إلى فهمه لدروس الأستاذ وعياً بقدرة (العامة) أو قوتهم فى تغيير الأحداث..

وقد اقترن بذلك فهم أكثر بالشعب المصرى ، ربما لكونه مصرياً ، ولأنه ابن بيئة شعبية ، لم يكن قد تعدى الثلاثين حين كان قد عمل فى كثير من الأعمال الشعبية مع أبيه الفقير ، ولم يلبث أن عمل فى بنها عاملاً للتلغراف انتقل بعدها للعمل بأحد القصور بالقاهرة فى نفس المهنة ، ووجد فى مُجتمع الأفغانى وعبده وزغلول وغيرهم متنفساً له ، وساح كثيراً فى الأقاليم والقُرى بعد أن غضب عليه صاحب القصر فطرده .

ويلاحظ أكثر من كاتب عن حياة النديم أن خروجه من مخبز أبيه بالأسكندرية إلى مكتب تلغراف فى القاهرة رمز إلى «الخروج من العالم التقليدى» إلى عالم ثورة الاتصالات بمنطوق العصر ، وهى ثورة أثرت فى حياته ، فيما بعد، حين مارس مظاهر الحياة الحديثة فى رحاب الثورة العُرابية وفى إنشاء الصحف وإلقاء الخطب وإلقاء نفسه فى أتون الثورة العُرابية قبل أن يشهد أكثر من منفى وأكثر من عودة يُمارس فيها حياة التشرد ، لكنه فى كل مرة لا يتوقف عن مُمارسة حياة التمرد على كل مامن شأنه أن يعمل على إحكام سيطرة الغرب على البلاد ..

وربُما كان أظهر مثال على هذا عمله فى الصحف وتشير الوثائق إلى أنه فى الوقت الذى انتمى فيه عبدالله النديم إلى المحفل الماسونى الإنجليزى (كوكب الشرق) مع أستاذه الأفغانى كان يكتب فى صحيفتى

المحفل (مصر) و (التجارة) المقالات التى كان لاينى يردد فيها من آن لآخر آثار الخطر البريطانى على الأمة الإسلامية (انظر محفظة جمال الدين الأفغانى) ..

كما تؤكد المصادر إلى أن صحيفة (مرآة الشرق) كانت قد صودرت بناء على إيعاز من الحاكم الإنجليزى الذى لاحظ فيها هجوماً على السياسة المصرية التى تتمشى مع السياسة الإنجليزية ، وهو ما تكرر مع عدد من الصحف الأخرى التابعة للمحفل الماسونى أو خارجه .

الأمر الذى دفع القنصل الإنجليزى إلى أن يطلب من الخديوى التخلص من جمال الدين الأفغانى وهو ماحدث بالفعل بإخراج الأفغانى من مصر عام ١٨٧٩ .

وفى هذه الفترة استطاع إنشاء جريدة أخرى (التنكيت والتبكيت) عام ١٨٨١ مُتعرضاً فيها للإنجليز ، وهو مافعله مع جريدة (اللطائف) حتى إذا ما احتل الإنجليز مصر أصبح مُطارداً منذ عام الاحتلال ١٨٨٢ وطيلة تسع سنوات (١٨٨٢ - ١٨٩١) حتى قُبض عليه ونُفىَ .

وحين عاد النديم من منفاه وجد نفسه أمام الإنجليز وهم يُسيطرون على كل المرافق فى البلاد ، وكرومر يحكم بأمره فى الصغير والكبير، ويأتمر الوزراء بإمرته ، فلم يلبث أن سعى إلى إنشاء جريدة (الأستاذ) عام ١٨٩٣ وفى هذه الجريدة - كما سنرى - حارب النديم فى جبهات كثيرة، لكنه كان يجمع بينها فى موقفه المُحدد من الغرب .

ومن يُتابع مواقف النديم وكتاباته الكثيرة كالدعوة إلى الحُرية والكرامة والوطنية ورفض التعصب والمُناداة بالدستور يجد أنه أكثر ما تميز به موقفه من الاستعمار الغربى .

ومن يُتابع رصد مواقفه من القضايا السياسية والاجتماعية (التى زادت لديه خاصة فى الفترة الأخيرة) يجد أنها مُرتبطة ارتباطا كبيراً بموقفه من

الاحتلال الإنجليزى وسيطرته على البلاد ودعوته إلى عدم أهلية المُسلمين للدخول إلى أبواب الحضارة الغربية ..

وقد بلغ للوصول إلى هذا السبيل درجة من التحايل التى لم تكن معروفة عنه من الميل للتمرد والعنف فى التصدى للإنجليز .

وربما كانت صحيفة (الأستاذ) أكثر الصحف التى عبر فيها عن هذا كله، وان لم يستطع أن يركب الرمز فترة طويلة أو يتخفى فى ثوب المهادن لكرومر أو صحفيى المحتل فى صحيفة (المقطم) ..

وهو ما نقف عنده أكثر

[٣]

إن مُراجعة أعداد (الأُستاذ) خاصة أعدادها الأولى تؤكد أن النديم حاول التحكم فى أسلوبه العنيف ، وإن لم يستطع أن يستمر فى ذلك طويلاً .

فمنذ البداية بدا أن أسلوبه اللين مع الخديوى عباس الثانى هو مُعاداة للإنجليز ، وهو ما يُفسر تأييد النديم له ، وخاصة فى أزمة وزارية دارت بينه وبين الإنجليز .

كانت انجلترا فى استحواذهم – حتى – على تعيين الوزراء تؤكد سيطرتها على البلاد ، كما كانت تسوغ احتلال مصر بدعوى المُحافظة على حقوقها ، ثم هاهى تحرمه – أى الخديوى – من سلطته فى اختيار وزرائه ، وهو مايُفسر كيف وقف التحكيم بجانب الخديوى الذى هو – بالتبعية – يقف ضد المحتل .

ويُلاحظ أيضاً أن موقف النديم من الاحتلال يتخذ أشكالاً عدة غير المواجهة المُباشرة ..

ففى صورة غير مُباشرة ، نجده يُركز – طيلة أعداد "الأُستاذ" – على عديد من الأسباب التى تعمل لتوعية الجماهير ضد الاحتلال كالحث على

التعليم والمعارف ، وكذلك الدعوة إلى إصلاح الأزهر (يُمكن رصد دعوات الأزهر منذ دعوة النديم ، وهى دعوة تحققت بعد ذلك) ، كذلك كان يدعو إلى إحياء الوطنية ، والحث على الصناعة الوطنية ، ورفض الكثير من العادات المستهجنة ، وفى مُقدمة هذه العادات خص سعى الأغنياء إلى (تقليد) الغربيين سواء فى المأكل أو المشرب أو طرق العيش وشراء المُنتجات الأجنبية ، بل راح ينقد الكثير من المصريين لإيثارهم الحياة الفاسدة والمُترفة التى لاتنبع من بيئتنا وخاصة الخمر والميسر ، وهو بهذا يُشير إلى ضرورة تحرير الشخصية ما من شأنه أن يحول بينها وبين التحرر من ربقة الاستعمار القائم .

كذلك كان يدعو كثيراً إلى الإقبال على الطب والعلوم واللغات والإدارة (الأستاذ ٢٧) ، ولم يكن ليتردد فى القول بعد برفض الخمور بالتصريح إلى أن الغرب يجلب لنا الرذائل ، فيصبح التقليد هنا إشارة إلى ضرورة الانصياع له وما يُقدمه لنا (الأستاذ ج ١ ص٤٦) ، وفى كثير من السُخرية يُشير إلى ردود الدول الغربية على هذه الدعوات بأنه من المعروف أن ذلك (ضار بمصالح الدول الأجنبية) فهذا يسىء إلى الاقتصاد الغربى كثيرا (ص١٦٥) .

ويتحول من النصح إلى الهجوم على أهل مصر الذين (أضاعهم اللهو واللعب والتفريح ..) ١٩٤ ، بل إنه يسعى إلى تأكيد أن سبب تخلفنا عن الغرب ليس لغير تخلفنا عن كشف ذواتنا ، والتنبه بما يجرى فى هذا العصر ، ويصل فى هذا إلى أقصاه فى مقالته (بم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد) ص (٣٣٧) .

وكان النديم لايتوقف عن الدعوة للقيم المتقدمة مرة بعد مرة ولاييأس أبداً ، فهو يعود إلى ضرورة الاهتمام بتخلفنا عن أوربا ، فيُشير إلى عدم التنبه للغة العربية ، كما يُشير إلى أن من أسباب التقدم هو تحاشى الفتن ،

وإيثار الهدوء والسكينة والحفاظ - كما كان يردد ضدنا - على حقوق الغرباء ..

كذلك دعا النديم إلى إنشاء مدرسة للبنين ومدرسة للبنات للاهتمام فى هذه أو تلك بمناهج العلوم العصرية ، ورفض تردد الخلاف بين طوائف الأمة الواحدة لئلا يستفيد المُستعمر من التفرقة بين أبناء الوطن (ص ٤٠٩) .. وما إلى ذلك .

ونلاحظ أنه كلما كانت تنشب أزمة بين الخديوى والإنجليز سرعان ماكان يأخذ جانب الخديوى ، كتعبير عن الموقف المضاد للمحتل ففى مقالته (الحقوق المُقدسة) فى ٢٤ يناير ١٨٩٣ راح يبذل الطاعة للمقام الخديوى والاعتراف بسيادته وسلطته ، رافضاً - فى الخلاف بين الخديوى والإنجليز - أن يعتمد سيد وأمير البلاد الشرعى على مشورة أجنبى (ج٢/ ٥٤٢) ، وقد وضع إنجلترا فى عرض السؤال بعد أن تدخلت لفرض رئيس النظارة ، فقال :

(والآن تنتظر الأزمة مايحدث من انكلترة بعد ذلك فإن تركت الوزارة المصرية تدير أعمالها بحسب مُقتضيات الأحوال المصرية وما يناسب أخلاق الأمة وعوائدها ومساعدتها على ذلك تحقق الكل صدق دعواها أنها دخلت مصر للإصلاح لا للاغتصاب والتغلب ..) (٥٤٣) .

ولا يتردد النديم فى الهجوم بعنف شديد على معاون بوليس إنجليزى احتال حتى قتل أحد الوطنيين ، ثم راح يمثل بجثته رغم غضب أهله الشديد ، خاتماً موضوعه بكلمات (..فيالعدل الإنكليز وأحكامهم) . (٥٧٦)

كذلك يلتفت إلى سوء وضع الإدارة فى يد الإنجليز دون المصريين ، غاضباً أن الأمر جاوز المسئول الإنجليزى إلى أجناس شتى مما يحدث اضطراباً كبيراً فى البلاد (إذ لا يلزم من اتساع علم الأجنبى فى الحساب أو

الترجمة أن يكون ذا خبرة بإدارة أحكام وأمور البلاد يجهل كل مافيها ..) (٥٨٠) .

ولايكتفى النديم بمُهاجمة الإنجليز فقط ، وإنما نراه يُهاجم صنائعهم ، سواء تمثل هؤلاء فى بعض الوزراء أو بعض المُديرين ، أو حتى فى بعض (الصحف) مثل (المقطم) ، التى تُهاجمه بعنف وتحرض عليه ..

ولايتردد فى الهجوم العنيف على (المقطم) وغيرها من الصحف التى تكون صنيعة الإنجليز ، ويصل هجومه على الإنجليز وصنائعهم إلى أقصاه، إلى الدرجة التى تجعل صحيفة المقطم تهاجمه بعنف ولفترات متوالية ، بل تتهمه صحف كالتايمز بإثارة النعرة الدينية ضد أوروبا ، ويضاف إلى المقطم والتايمز والديلى تلجراف والمورنج جوست .. فلا يتراجع أبداً .

ويجب أن نسارع لتأكيد ماسبق وأن أشرنا إليه ، أن النديم رغم هجومه المستمر على الأوروبيين وأذنابهم، لم يعتقد - أبداً - أن بلاده يُمكن أن تظل مُكتفية بحضارتها الراهنة للوصول إلى الرقى الذى بلغته الدول الأوروبية إذ كانت أوروبا - كما يقول حورانى - هى العدو السياسى ، لكنها كانت مع ذلك المعلم أيضاً .. (السابق ص ٢٣٩) .

العدو والمعلم

الاستعمار والحضارة .

وقد راح يصيغ هذا المعنى فى عناوين مقالاته :

- لماذا يتقدمون ونحن على تأخر
- مستقبل مصر .
- حالنا أمس واليوم.

وبمراجعة هذه العناوين وغيرها يتأكد لنا أنه يُريد أن يؤكد الرأى الذى يقول أن مصر ليست مُتأخرة بسبب المناخ أو الدين . إنها تملك مصادر القوة الأوروبية بعد ، مع أن باستطاعتها امتلاكها جميعاً ، وهى اللغة

والدين ، والوقوف فى وجه العالم الخارجى والنشاط الاقتصادى ، ونظام التعليم الشامل ، والحكم الدستورى ، وحرية التعبير (حورانى ص ٢٣٩)

وحينما يزيد الهجوم على الأستاذ بإيعاز من الإنجليز نجده لا يهتم بذلك ، ويُهاجم قوة الإنجليز بصراحته التى كانت تدفع (المقطم) لإرهاب أصحاب (الأستاذ) فى مقالة (حرب الأقلام بجيوش الأوهام) مؤكداً أن القوة لن تخيف المصريين حتى إذا ماجاء الإيقاف أو الإنذار الأخير لُمصادرة المجلة ، فإنها تصادر بالفعل ، بعد أن يكتب مقالته الأخيرة تلك ببيتين من الشعر يلمح فيه إلى السبب الذى اضطره إلى ذلك ، يقول :

أودُعكُم والله يعلُم إننى ... أُحبُ لقاكمُ والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما ... دواع تبدت فالسلامُ عليكمُ

وبهذا يكون النديمُ قد أكد ، أن الخطرَ لايأتى من الخارج دائماً ، وإنما قد يأتى من الداخل أيضاً ، والخطرُ الداخلى يكون - غالباً - أشد وطأة من الخطر الخارجى ..

مصادر ومراجع مُختارة

ـ دار الوثائق بالقلعة ، محفظة (جمال الدين الأفغانى)

(ملف خاص عن علاقة الأفغانى بالمحافل الماسونية)

ـ أرشيف بإدارة الوثائق الفرنسية : Hention de GEMAL EL DIN

DANS LES ARCLIVES DU QUAI D'ORSAY

ـ عبد الله النديم

(أ) كان ويكون ، من تراث عبـدالله النديم دراسة وتحليل د . عبدالمنعـم الجميعى وتقديم د.عبدالعظيم رمضان ، الهيئة العامة لدار الوثائق - دار الكتب ، القاهرة ١٩٩٥ .

(ب) الأعداد الكاملة لمجلة الأستاذ ، جزءان ، دار كتبخانة . ط ١ ، القاهره ١٩٨٥.

(ج) التنكيت والتبكيت ، أعداد بدءاً من٦/ ٦ / ١٨٨١ .

ـ عبدالمنـعم الجميعى ، عبـدالله النديم ودوره فى الحركة الـسياسية والاجتمـاعية ، بدون ، ط٣ ، ١٩٨٠ .

ـ محمد خلف الله ، عبدالله النديم ومُذكراته السياسية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، بدون .

ـ ألبرت حورانى ، الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ / ١٩٣٩ ، ترجمة كريم عزقول ، دار النهار ، بدون

* ندوة : عبداللـه النديم ، ندوة لجنة الدراسات الأدبية والـلغوية بالمجلس الأعلى لـلثقافة ٢٧/ ٥ - ٣٠/ ٥/ ١٩٩٥ ، دار الكتب ، القاهره ١٩٩٥

- أحمد أمين، من زعماء الإصلاح، القاهرة١٩٤٨.

ـ مُصطفى عبدالغنى ، المـؤثرات الفكرية فى الثورة العُرابية ، الهيئة العـامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨ .

طه حسين
وأزمة «الرأى العام» فى مصر

نعود إلى سؤال البدء:

هل لدينا رأى عام فى مصر؟

من يجرؤ أن يقول: نعم.

١- يتحدد هـذا البحث - أساسا - حـول أزمة الرأى العام، ويتـخذ من كتاب طـه حسين (فى الشعـر الجاهلى) الذى صدر عـام ١٩٢٦ (حالة) للبحث عن هذه الأزمة.

إنها (حالة) تثير سؤالا عن الرأى العام فى مصر

وهذا السؤال يقتضينا - فى حالتنا - أن نتعرف على مناخ الأزمة (أولا) ، قبل أن نعود (ثانيا) للإجابة عن هذا السؤال :

- هل لدينا «رأى عام » فى مصر ؟

٢- وكما يتحدد البحث حول كتاب طه حسين، كـذلك ، ينسحب - على مدى سبعين عاما - على مصادر العقل فى مصر عبر رموز كثيرة من المفكرين والمثقفين وعبر محاكمات واتهامات ومصادرات شتى

ولأن المناخ منذ نهاية الثلاثينات هـو هو لم يتغير ؛ فإن (حـالة) كتاب «فى الشعر الجاهلـى» تظل أصلح مما يمكن التأكيـد منه على دوال مازالت فاعلة بالسلب فى حياتنا الفكرية والثقافية.

٣- ولأن القضـية تتمـخض عن أزمة - أيا كـانت مسمـياتها - فـإنها تحاول البحث عن أسبابها عبر هذه الحقبة الطويلة التى كان أهم انتكاساتها ارتداد حركة (التـنّوير) وسقوط (النهضـة) التى تبناها مفـكرونا كل هذه السنوات

وهو مايخرج بنا من أزمة فردية إلى (مـناخ) عام يمتد إلى نفق مظلم تقل فيه المصابيح

وهو ما يمثل دافع العودة إلى هذه (الأزمة) والإصرار على الإجابة عن ذلك (السؤال) والتمهل عند نقطة ضوء تحاول منها الخروج إلى المستقبل .

٤- سوف يكون منهجنا هنا - فضلا عن المنهج التاريخى - الإفادة من المنهج عبورا إلى بعض القرائن الحضارية والمدخل النفسى .

على أن المنهج النقدى يظل أكثر مما يعيننا على أن نستبصر بالمعانى والدلالات التى تتعلق بمسيرة الرأى العام، وبهذه الأزمة التى يعانى منها المجتمع المصرى، كما أننا من خلال هذه المنهج نستطيع أن نضع أيدينا على المشكلات التى يثيرها مناخ الرأى العام لاسيما فى الفترة الليبرالية

لنشير بسرعة إلى(الكتاب) والمناخ الذى واجهه قبل أن نتمهل أكثر عند أنماط

(الرأى العام) فى مصر وطبيعتها ..

٥- صدر فى مايو ١٩٢٦ كتاب (فى الشعر الجاهلى) حاول فيه صاحبه أن يستخدم المنهج الديكارتى فى الشك موضحا هذا فى تمهيد كتابه « ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليس من الجاهلية فى شئ إنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شئ، ولا ينبغى الاعتماد عليه(١) .

ومع إنه دعا إلى النظرة الموضوعية فى قضية انتحال الشعر، فلم تكن القضية هى الانتحال وإنما تحولت إلى قضية شائكة وشكوى عنيفة لعدة أسباب أخرى منها .

- إنه أهان الدين الإسلامى بتكذيب القرآن فى إخباره عن إبراهيم وإسماعيل

- إنه تعرض للقراءات السبع المجمع عليها بما لا يليق
- إنه طعن على النبى من حيث نسبه .
- إنه أنكر أن للإسلام أولية فى بلاد العرب، وأنه دين إبراهيم (٢).

نستطيع أن نخرج من هذا بأمرين اثنين : أحدهما أن الكتاب أراد صدمة للمجتمع الذى يعيش فيه، وهى صدمة فكرية حاول أن يستخدم فيها المنهج الغربى، وهو ما لاحظه قرار النيابة حيث جاء فى نهايته

« للمؤلف فضل لا ينكر فى سلوكه طريقا جديدا للبحث حذا فيه حذو العلماء الغربيين ولكنه - يضيف رئيس نيابة مصر -لشدة تأثير نفسه بما أخذ عنهم ..»(٣) إلخ.

هذا هو الأمر الأول، تلمس منهج جديد والتحمس له،

أما الأمر الآخر فإنه قد تورط بمنهجه فى الدين بدون قصد؛ جاء فى قرار النيابة السابق «يتضح أن عرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين» (٤).

الجانب الدينى إذن - على الأقل فى الظاهر - هو الذى أحدث رد الفعل الأول لطه حسين ، غير أننا لا نستطيع أن نعرف المناخ أكثر دون أن نعاود النظر إلى المشهد كله .

٦- رغم أن الكتاب قد نشر فى مايو ١٩٢٦ - أى فى وزارة أحمد زيور الأخيرة - فإن رد الفعل العنيف ضده زاد فى الوزارات التالية حيث حكمت وزارات كانت تنتمى إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى ينتمى طه حسين إلى صفوته الفكرية وإن كانت تتمتع بأغلبية وفدية، ومن ثم، أسهم الجانب السياسى- بالتنافس بين أكبر حزبين فى هذا الوقت- الأحرار والوفد - مما انعكس على طه حسين وكتابه الذى أحدث أزمة كانت عواقبها خطيرة.

لقد أضيفت الخصومة الحزبية إلى الغيرة الدينية .

٧- أضيف إلى العامل الدينى والعامل السياسى.. الواقع الذى كان يدور فيه صراع بين أطراف عدة فى وقت كان الملك له نفوذه والإنجليز يحرصون على تأكيد وجودهم .

كان الملك يريد الاحتفاظ بوجوده وأوتوقراطيته، ويبدو أنه أحس أن ما جاء به طه حسين (وقبله على عبد الرازق) ينال من نفوذه، وفى الوقت نفسه كان الإنجليز .يحرصون على السلطة التقليدية إذ كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يثبتوا أقدامهم أكثر فى إطار النظام الدستورى المستورد من الغرب (٥).

كان على طه حسين أن يواجه الملك الذى كان يعتقد أن صاحب القصر يهاجم ويهدد، فملكه كان قائما على مبادئ شرقية تتعارض- فيما يرى مع الفكر الجديد الذى نجده فى كتاب (فى الشعر الجاهلى).

وفى الوقت نفسه كانت الأطراف كلها تحاول الإفادة من الأزمة..

٨- بيد أن أكثر الأشياء خطورة تمثلت فى الصراع بين القديم والجديد، أو بين التيار « الليبرالى الحديث والتيار التقليدى السلفى » وكان التيار السلفى يشتد عضده فمنذ رحيل محمد عبده كان لابد وأن يزيد الصراع بين الشيخ التقليدى و(الأفندى) المستنير من حيث الأهداف فى الغاية التى جمعتهما حول أحلام النهضة : «الحرية والعدل والتقدم » (٦) وظلت الثنائية المتعارضة بين الشيخ المجدد والشيخ التقليدى قائمة،وقد لاحظ د. جابر عصفور أن خطاب النهضة الإصلاحى السابق على طه حسين لم يكن « يعرف المواجهة الجدلية التى تسعى إلى تأسيس تحول جذرى فى أنساق المعرفة المهيمنة»(٧).

وفى ضوء ذلك كله أصبح المناخ معبأ ضد الكتاب وصاحبه سواء من الملك أو الإنجليز وقبلهم الخصام الحزبى ومقولات عقيدية يحاول كل

طرف الإفادة منها لمصلحته ضد الآخر، وقبل هذا وبعده، جماهير مغيبة أو كالمغيبة .

وعلى هذا النحو، وجد صاحب (فى الشعر الجاهلى) نفسه يُهاجم بعنف لثلاثة أشهر بعد ذلك ،بل إن موقف العنف والمصادرة للكتاب جاوز عاملا بعينه إلى عوامل كثيرة كانت تسعى للهجوم على طه حسين ومنهجه، ومراجعة وسائل الإعلام ترينا أنها استمرت تهاجم الرجل لسنوات، بل إن وثائق مجلس النواب والشيوخ ظلت فى هجومها المستمر وإلى آخر جلسة فى ٢٧ مارس ١٩٥٠.

ولا نغلو إذا قلنا إن الهجوم على الكتاب وصاحبه استمر سبعين عاما، ولا نعرف إلى متى يستمر الهجوم .

على أن الذى يهمنا فى هذا كله رصد أطراف (الرأى العام) فى هذا الوقت، وقت صدور الكتاب وما أدى إليه من أزمة تستمر حتى اليوم وهو ما نتمهل عنده أكثر .

الرأى العام

٩- وعبورا فوق تعريفات كثيرة فى الرأى العام (٨)* نستطيع أن نصل إلى عدة تعريفات تعيننا فى التعرف على المصطلح فى هذا السياق.

الرأى العام هنا هو الآراء أو ردود الأفعال فى أمور تمس الشأن العام، كما يتحدد فى فترة زمنية معينة، كذلك يمكن التعرف عليه من خلال عملية التفاعل الذى ينطوى عليه رأى له دوال مختلفة، وهو فى الغالب لا ينصرف عن اثنين : الجماعات المنظمة أو الصفوة، ثم الجمهور العريض .

ويقترب هاريمان P.LHARMAN فى تعريفه للرأى العام من هذا الاتجاه، إذ يرى أنه الرؤى أو الاتجاهات التى تشترك فيها الغالبية العظمى من الأفراد .. وجولدنسون R.COLDENSON يعرف الرأى العام بأنه ذلك الاتجاه العام للجمهور، نحو قضية ما، أو مجموعة من القضايا التى تهم مجتمعا معينا (٩) .

ويتفق علماء السياسة على أن الرأى العام هو نتاج للتفاعل بين الجماعات وكنتاج للدور الذى تلعبه جماعات المصالح في تشكيل الرأى العام وتوجيهه . هذا الدورتتحدد طبيعته ومداه بطبيعة البناء السياسى والاجتماعى للمجتمع (١٠) ونستطيع أن نوافق د. على الدين هلال على أن أغلب دول العالم الثالث تعتمد على ديماجوجية الزعامات السياسية وعلى استخدام العواطف فى استثارة الجماهير فعملية المشاركة السياسية فى هذه الدول لا تأخذ سوى أشكال انفعالية أو مظهرية(١١).

وفى هذا الصدد يمكن أن نلاحظ أن العلاقة بين حكومات الدول النامية والرأى العام أصبحت علاقة غير ذات أهمية، حيث تسيطر حكومات الأقلية عموما على وسائل السيطرة على الرأى العام والتحكم فيه، ومن ثم يمكن تجاهله بدون عناء كبير.

وهذه الدرجة فى التقليل من أهمية الرأى العام أو عدم الاهتمام به يعود - خاصة فى العالم الثالث - إلى مرحلة الفوضى التى تمر بها البلاد، بل إن الرأى العام تحول فى العصر الليبرالى إلى أسطورة كما أسماه بوبر الفيلسوف المناضل الكبير فى أحد كتبه (١٢).

١٠- ويمكن بالعود إلى قضية (الشعر الجاهلى) أن نتمهل عند ثلاث محكمات يمكن أن يستفاد بها فى المفهوم السيكولوجى للرأى العام وهى :

أولا : وجود قضية

ثانيا: التعامل الاجتماعى

ثالثا : التعبير عن الرأى العام (١٣).

وهو ما لا ينسحب على قضية أو قضيتين أثيرتا فى النصف الثانى من العشرينات وإنما على عديد من القضايا التى تستمر فى تواليـاتها المكررة حتى اليوم .

وما ينسحب على هذا فى النظر العـام، يمكن أن ينسحب على قضايا حيوية إلى حد كبير .

خلال هذا كله، يـمكن التعرف على طبيعة البناء السيـاسى للدولة - كمـصر - من دول العـالم الثـالث، ودور النـظام فى السـماح بإبـراز هذه القضية أو تلك، وإلى مدى يستطيع أى طـرف له مصلحة سياسية أو دينية أو اقتـصادية التـحكم فـى التعبـير عن الـرأى العام،أضف إلـى ذلك دور وسائل الإعلام فى السماح للـرأى والرأى الآخر أو - حتى -تجاهل الرأى الآخر كلية .

وتزيـد الهوة اتسـاعا حين نـحاول أن نقارن بـين الرأى العـام فى دول الجنوب ومثيلتهـا في الدول الصناعية المتقدمة .. ونحن نـوافق البعض هنا على أن الرأى الـعام فى دول الجنوب يتضاءل تـأثيره وفعاليتـه إلى الدرجة التى لا نستطيع أن نقول معها بجـدواه، فالرأى العام لدينا يمكن أن نطلق عليه هذه السمات :

-أنه سطحى

- وفاعليته محدودة

- كما أن فرص وجوده إزاء القـضايا المهمة والحيوية فى الـدول النامية فرص ضئيلة للغاية .

ومع اعتقادنـا - على المستوى الشخـصى - أن جماع كل هذه السمات يعنى أنه ليـس لدينا أى رأى عام ؛ فإن المعيار الوحيـد هنا سيـكون التعرف عـلى ملامح هـذا الرأى خلال المناخ الذى دارت فيه معركة كتاب (الشعر الجاهلى).

أبعاد الرأى العام

المعروف أن القضـية التى تتصل بالجـوانب الدينية والسيـاسية ، خاصة، عادة ما تحظى باهتمام عديد مـن مكونات الرأى العام وأبعاده، وسوف نجد

أن قضية (الشعر الجاهلي) تشخص كل هذه الأبعاد إذ شارك فيها عدد كبير من السياسيين والمثقفين بالسلب أو بالإيجاب :

ومن نافل القول أن هذه المعركة (الشعر الجاهلي) تكررت في السنوات الأخيرة في معارك من مثل (أولاد حارتنا، فقه اللغة، نقد الخطاب الديني، المهاجر...) إلى غير ذلك مما ينسحب الحكم على هذه الفترة التي تمتد لتصل بين العشرينات ونهاية القرن العشرين .

ومن ثم، فإن الأحكام التي نصل إليها تمثل تمثيلا حقيقيا لما يحدث في بلادنا في هذه الفترة الصعبة التي نمر بها .

١١ - إن مراجعة ردود أفعال أطراف المعركة نجد أنفسنا أمام بعض أنماط شخصيات تحمل - في التحليل الأخير - دلالة الأزمة، ومن ثم، ملامح أزمة الرأى العام وتعريته في هذا المناخ.

وما يجب أن نردده هنا أن القضية لدى طه حسين نفسه لم تتعد ارتباطه بأحد طرفي الصراع في هذا الوقت، بين القديم والجديد، ولأنه يعتبر نفسه من أنصار الجديد.، فإنه يلوم أصحاب القديم في مقدمة كتابه حين يرى أن بعضهم - أي بعض أنصار القديم - اشتد في اللجاج بينهم، وخيل إلى بعضهم أنه يستطيع أن يقضي فيها بين المختصين (١٥).

وعلى هذا، فإن موقفه لم يزد على إنه ينتمي لمذهب الجديد ونتائجه، فهذه النتائج «إلى الثورة الأدبية أقرب منها إلى أي شئ آخر » (١٦).

فطه حسين إذن مثل ثورة فكره على القديم ، ولم يتنبه - رغم جسارته إلى أن ما سيقول به سيغضب خصومه، وما سيركزون عليه.

فرغم أن عددا كبيرا من المتصدين له جاهروا بموقفهم، فإن القضية العلمية الأساسية التي أثارها، والتي تتعلق باختلاف لغات القبائل العربية قبل الإسلام لم يشر إليها أحد وإنما تركز الهجوم عليه من منطلق حزبي

أو عقيدى أو خصومة سياسية أو لاقاه الرأى العام - بمعناه العام- بالصمت لجهله بطبيعة القضية، اللهم إلا ما يقال له إنه يرتبط بالدين ويحاول أن ينال منه.

لقد تجاهل عدد كبير القضية الرئيسية إلى قضية أخرى للنيل منه ومراجعة الكتابات التى كتبت ضد كتاب الشعر الجاهلى تؤكد لنا القصد المسبق، فإن أحدا لم يرد على النقطة الأساسية التى أثارها طه حسين ، والتى تتعلق باختلاف لغات القبائل العربية قبل الإسلام (١٧) إنما انصب الهجوم على المواقف التى تثير الرأى العام أو تنال من طه حسين .

وعلى هذا النحو، فإن مشهد الرأى العام فى ذلك الوقت يشير إلى أن أزمة (الشعر الجاهلى)أحاطتها الخصومة الحزبية أكثر من الحيدة والغيرة الدينية وإعمال العقل (١٨).

وعلى هذا، فنحن أمام عدة أنماط لشخصيات تعبر عن الرأى العام تخرج عن القصد من الكتاب إلى التأثير فى (خطابه) الذى أراد تبليغه.

أنماط الأزمة

١٢- وإذن، فنحن فى هذا المشهد أمامَ ملاحظة عدة أنماط لشخصيات تحَملُ الرأىَ العام كما تحاول أن تُعبرَ لنا ونستطيعُ أنَ نُحددَ هذه الأنماط بمواقفِها: المعارضِ والغائبِ والمستنيرِ

نمط المعارض السياسى

النمطُ المعارضُ هنا، هو النمطُ الذى حمل للكاتب خصومة سياسية، وظل يوالِى الهجومُ مستخدماً شتى الأساليبِ وشتى المنابرِ قرابةَ شهورٍ ثلاثة عقبَ صدورِ الكتاب.

ومَع أنِ هذه المَعارضَ لم يتخلَّ عنِ موقفه وحتى آخر مجلسِ نيابى فى عام ١٩٥٠، فإن هذه الشهور الثلاثة مثّلت قمةَ الغضب المحمَّل بالخصومةِ

السياسية من قبل حزب الوفد - الأغلبية - ففي الجلسة الأولى فى مجلس النواب ظهر الموقف العنيف الذى وقفه سياسيو هذه الفترة ضد الكتاب وصاحبه، وموقف سعد زغلول - بوجه خاص- وقد كان مشبعا بخصومة شخصية وحزبية (١٩) ضد طه حسين حتى إنه عرض اقتراحاً لم يعترض عليه سعد مؤداه :

أولا : مصادرة كتاب طه حسين (فى الشعر الجاهلى) ..

ثانيا: تكليف النيابة العمومية برفع الدعوى على طه حسين ..

ثالثا: إلغاء وظيفته فى الجامعة ..

وكان آخر ما انتهى إليه المجلس بإيعاز من الأغلبية الوفدية ضد أحد أبناء حزب الأقلية - الأحرار الدستوريين - هو، أن يقوم سعد زغلول بنفسه بأن يكلف وزيرالمعارف بتبليغ النيابة.

الواضح تماماً أن الفرصة كانت سانحة أما م خصوم المحرر السياسى لجريدة السياسة لينالوا من المتهم دون اعتبار لأى أمر آخر .

ورغم أن طه حسين أدرك طبيعة الحصار السياسى حوله والذى خرج - فى الأصل - عما يدعو إليه، فإنه قام بسحب الكتاب، وكتب خطاباً مفتوحاً دافع فيه ضد ما يتهم منه في دينه، بل إنه فى العام التالى قام بحذف ما أثار هذه الضجة وأعاد نشره بعنوان آخر مختلف ..فإن خصوم الحزب الذى ينتمى إليه لم يتزحزحوا قيد أنملة

وكان أكثر مظاهر العنت السياسى ضد الكتاب قد تمثل فى موقف أكبر سياسى مصرى فى هذا الوقت، فما أن وقف سعد زغلول خطيباً فى إحدى المظاهرات ضد طه حسين حتى صاح بخيلاء وبغير تحسب للجماهير الغاضبة :

(-إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلاً مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شئ من ذلك؟..(و) .. فليشك من يشاء، ماذا علينا إذا لم تفهم البقر) (٢٠).

انظر كيف خرج سعد زغلول من هيئة السياسي الحصيف ليتهم الكاتب بأنه مجنون وأنه - فى شكه - يشبه البقر ؟!!

وقد تأثر طه حسين كثيراً لهذا الموقف، وهو تأثر لم يفارقه بعد ذلك قط، فبلغ من غضبه أنه راح يكتب كتابا إلى رئيس الجامعة- لطفى السيد- ليزيح عن نفسه التهم الملفقة التى اتهم بها (٢١).

ورغم أن طه حسين ذهب - بالفعل -إلى النيابة، ورغم أن النيابة أعادت تجاوزاته فى الكتاب فى بعض المواضع إلى البحث العلمى، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها ، تم حفظ الأوراق.. فقد ظلت لعنة الشعر الجاهلى تلاحقه حتى استقال من الجامعة لأكثر من مرة فيما بعد (٢٢).

كان على العكس مما يحدث، فإن فكر طه حسين أقرب إلى فكر المرحلة - الليبرالية- فصل الدين فى ناحية والعلم فى ناحية أخرى (٤٣) ومستخدما المناهج والنقد فى غربلة الروايات الاسلامية.. ومع ذلك ؛ فإن الهجوم توالى عليه من منطلق خصومة سياسية وليست فكرية بأية حال .

ومن هذا الوقت نستطيع أن نفسر كثيراً من أسباب تراجع الليبرالية وارتدادها وإن كنا ستمهل عندها فى موضع آخر .

بيد أن نمط المعارض اتخذ- فى مشهد الرأى العام - وجهاً آخر كان أكثر قسوة وإيلاماً على طه حسين

١٣- وهنا نصل إلى نمط آخر

نمط المعارض الدينى

ها هو الوجه الآخر لنمط المعارض السياسي.. فكلاهما - السياسى والدينى - حاول أن يلعب دوراً خطيراً ضد الكتاب وصاحبه مستخدمين فى هذا وسائل الإعلام المتاحة وتعاطف الملك وكراهية الإنجليز للصخب الذى يمكن أن يحدثه أحد المثقفين المنتمين لحزب.

وهذا النمطُ من المعارضينَ الدينيين، رغم ما يتصفُ بعضهم من الاعتدال فإن الغالبية العظمى تقع ضحية الغيْرة على الدين، وتعتمد أكثرَ ما تعتمد على ثقافة (السماع) أكثر من الفهم والاطلاع ، وهذاالنوع عانى منه طه حسين كثيراً فقد كان يرْسُم نفسه ممثّلا للرأي العام.

وأكثر مايميُز أصحابَ هذا النمط أنها شخصياتُ« أكثرُ خضوعاً لضغط الجماعةِ مسايرين لاتجاهاتها منفذَين لأوامرها» (٢٤).

وهم في الغالب لا يتقبلون فكرَ الآخر، خاصةً إذا ما كان ينتمي في أحد مرجعياته - كطه حسين- إلى الفكر الغربي، فالقدرة على تقبل ما يأتي به تقلل من كونه - أي المعارض- يحتل مكانة مميزة في وجدان المعارضين.

إن مرجعية هذا النمط هي أقرب إلى المجمود الفكرى Riyidity منها إلى وجه الدين الصحيح، وقد توصل بعض علماء النفس إلى معاملات ارتباط بين التعصب من جهة وبين التصلب والتطرف والعداوة والجمود والمجاراة السلوكية والسيطرة والمحافظة من جهةأخرى (٢٥) .

أضفْ إلى هذا أن بعض خبرات التحليل النفسي ذهبت إلى أن هناك علاقة أكيدة بين مستوى التعليم وبين درجة الوعي، وبالتالي، فإن درجة تمثيل الرأى العام في قضية كقضية (الشعر الجاهلي)إنما كانت ترتبط بمستويات التحصيل العلمي بما فيه العلم المعاصر .

ومع إدراكنا أنه ليس كل متعلم يملك وعيا فكريا أو دينيا، فمن المؤكد أن المرجعية التراثية وحدها اليوم لا تمثل حداً أدنى من الوعي السياسي بما يحدث في العالم حولنا.

وهنا نجد رباطا أكيدا بين هذا المعارض الديني متواضع المعرفة ومثيله المعارض الديني وإن ارتفعت راية العلم الديني وحده، فالعلم ليس دينا

فقط، كما أن العلم لا يحث على العلوم الكهنوتية وحدها، وقبل ذلك، فإن الدين لا يدعى أنه مقصور على العلوم الدينية فقط، بل يدعو إلى الأخرى ويحث عليها .

وهو ما يفسر لنا هذه الكتابات الكثيفة التى عثرنا عليها فى صحف هذه الأيام وكلها - ممن يمثلون الدين أو يحتكرون معرفته- يهاجمون صاحب (الشعر الجاهلى) أحدهم يوقع وأكثرهم لايوقع (٢٦).

وكان من الممكن أن نجد المعارض الدينى فى الصحف كما نجده فى مجلسى النواب والشيوخ كما نجده فى الأزهر سواء بسواء .. لقد قادت مجلة المنار حملة عنيفة ضده.

إن مراجعة صحف هذه الفترة ترينا هذه الحملة التى توالت على صاحب كتاب الشعر الجاهلى دون روية أو مناقشة جادة لما جاء فيه، للنائب العام :

- إن أحد طلاب القسم العالى بالأزهر يتقدم ببلاغ للنائب العام

- يرسل شيخ الأزهر كذلك خطابا إلى النائب العام ولم ينس أن يرفق به - بعد النيل من دين طه حسين وطعنه فيه على النبى صلى الله عليه وسلم- صورة من تقرير أصحاب الفضيلة (العلماء).

إن عبد الحميد البنان - عضو مجلس النواب - تقدم إلى النائب العام ببلاغ آخر يقول إن كتاب الشعر الجاهلى فيه « طعن وتعد على الدين الإسلامى وهو دين الدولة»(٢٧).

وهى البيانات التى بدأ التحقيق مع طه حسين بناءً عليها

ويلاحظ أنه رغم أن الكاتب نزع بعض أوراق الكتاب ووضع مكانها أوراقا أخرى مما ينزع عنه تهمة الكفر - أهم جناية وجهها إليه خصومه - فإن الحملة التى ترتدى أزياء دينية لا تتوقف قط، ونستطيع فى هذه الفترة التى أعقبت نشر الكتاب ومحاكمة صاحبه ومحاولة النيل منه أن نرصد

عشرات المقالات وعدداً كبيراً من الكتب التى تهاجم الكتاب دون تمحيص كاف(٢٨).

ويجب الإسراع بالقول هنا أن أغلب ما كتب ضد طه حسين وإن اتخذ منحى دينيا والتزم بالجمود الفكرى ؛ فإننا لا نستطيع أن نزعم أن (كل) من رد عليه كان كذلك، غير أن أكثر ملامح هذا النمط كانت تشى بهذا الإصرار على تكفير طه حسين دون أن يمنح فرصة للدفاع عن نفسه.

الأكثر من هذا أننا يمكننا القول إن طه حسين لم يتبع الأسلوب الهادىء فى بسط أفكاره فى مجتمع مازال يعانى من التخلف، ومن ثم، الحس العقيدى الممتزج بالغيرة والذى يسهل زلزلته فى النيل من بعض المفاهيم العامة التى يرتبط بها .

١٤- وهو ما يقربنًا - أكثر -من نمط آخر من أنماط الرأى العام .

النمط الغائب

فرغم خطورة دعوة طه حسين من اتهامه فى دينه ، نستطيع القولَ إن المناخ العامَ لم يكن ليؤثر تأثيراً إيجابياً فى اتخاذ موقف ضدَه .

وقد سبق وأن أشرنا- سلفا - إلى حالة الجمود الفكرى التى كانت تصيبُ النمطَ الدينى ،بيد أننا نستطيع أن نرىَ هنا أكثر أن هذا النمطَ مثّل الأغلبية الغائبة لما يحدث فى الجامعة وعدة مؤسسات حاولت أن تقيس الفكر الغربى والليبرالى خاصة .

ومن المعروف أن البيئةَ التى شَهدت هذه الأحداثَ فى مصرَ فى العشرينات كانت تعانى جملة من الأخطار التى لا يستطيع الإنسان (العادى) أن يُكّون فيها -أو عنها رأياً عاماً - ففى ظل الإطار الاقتصادى كانت مصر تعيشُ التخلف الاقتصادىَ ومؤثراته من الفَقرِ المدقع والأمية العالية ومجتمعات فلاحية تكاد تكون مغلقة على نفسها بعيدا عن (الأفندى) الذى كان يخَرج منها ولايعودُ إليها ثانية .

وفى ظلَ الإطار السياسى كانت جماعةُ المصالح المعروفَة فى هذا الوقت من (البرجوازيـة) التى كان يتم تشكيلُـها للحاق بالغرب تحول بـين الفكر السياسى التى تريد الارتباط به - وتعلم أبناءها فى جامعات تنتمى إليه فى الغرب - كانت تحول بين الإنسان البسيط بالحضرِ أو المدينةِ أن يكون أكثر وعياً بما يحدثُ فى هذا العالم الجديد.

لقد خلَقت جملةُ ظروف- منذ الاَحتلال البريطانى، وربما قبلها - حالة من الانفـصال أو الانفصام الحاد بـين الحكومة والمحكـومين، بين النـخبة - سياسـية أو ثقافـية - وبين جـماهير الـشعب التـى لم تزدْ علـى أن تكون (كتلة)MASS فى الريف أو شغيلةَ فى المدينة َوحسب .

وإذا كان الحالُ كذلك فى الإطار السياسـى والاقتصادى، فقد كان أكثر بشاعة فى الإطارِ الثقافى، فما زالت الثقافة تقليدية، ويرى د. كمال المنوفى هنا إلى أن « الإنـسان العادى فى هذه الدول يفـتقر إلى الاستعداد لـتكوين آراء حول المشـاكل والأحداث البـعيدة عن حـياته المبـاشرة. وفى كثـير من الأحيان، نراه يجيب « لا أعرف» إذا سئل عن هذه الأمور .. كذلك ينقصه الإحساس بالقـدرة على مجابهة وتغـيير الإطار المجتمعى الذى يـعيش فيه، وهو ينقصه القدرة على إبداء الرأى فى مختلف المسائلِ المحلية والقومية مع الاقتناع بأن لهذا الرأى قيمةَ ويمكن أن ينصت إليه. ولَقد اتضح من بعض الدراسات الميدانيـة التىِ أجريت فى مدن مصر وقراها أن أغـلـب الفلاحين لا يجرؤون على إبداء وُجـهات نظرهـم فيما تفعله الحـكومة دون خشيِة أو جزع » (٢٩).

وعلى هذا فإن الإنسانِ المصرىَ بعيد عن المؤسسات أو مرتبط بالحكومة فى هـذا الوقت لـم يـكن َليعـرف شيئـا عما يجـرى خارج أوضاعه الـتى تكرس من أجل ألا يكون له أى رأيُ فعال ومؤثر.

وعلـى هذا النـحو، كـانت الغـالبيـةُ العظـمى فـى هذا الوقـتِ - فى

العشرينات من هذا القرن - لا تحمل رأياً عاماً، ولا تستطيعهُ، غاية ماكان يحركها الحس الدينى، وهو الحس الذى كان لا يصدّق - رغم أهميته - حين ينتقل من العاصمة (الحكومة) إليهم .

وعلى أحسنِ الأحوال تستطيع القولَ إنه - ربما - كان هناك رأى ما لكنه غير موجود بحكم أنه لا يجرؤ أن يخرج بصاحبه إلى حيز الفهم والممارسة مما يتحول إلى رأى كامن LATENR PUBLIC OPION لا يمكن التعبيرُ عنه بأية حال .

ويكفى أن (أنندية) القاهرة و(الحكومة) تقوم بذلك .

بيْد أن هذا النمط (الغائب) وأن مثلّ الأغلبيةَ فى مصر، ليس لهم دورُ فعال، أو ليس لهم أىَ دور فى صنع الرأى العام .. هذا النمطُ الغائبُ -ذو الأغلبية - كان يقابله نمَط آخر، يعد بحكم وجوده، قائماً لكنه بحكم ضآلة أعداده لا يمثل أى دور فعال .

١٥- وهذا النمطُ الأخير هو النمطُ المثقفُ المستنير

إن وجودَه - كغيابه - يحمل نفسَ التأثير المنقطع فى صنع الرأى العام إن هذا العدد - على تأثيره - لم يستطع أن يسهم فى أزمة الرأى العام بشكل أكثرَ إيجابية..

إنّ المثقفَ المستنيرَ (ومثيله السياسى) ظل غائبا عن الرأى العام، تساوى فى هذا على الشمسى وزير المعارف وقبله لطفى السيد من السياسيين، أو عباس العقاد ومحمد نور رئيس النيابة على عمق ما قدماه لطه حسين .

إن الدرس المستفاد هنا أنه لن يكونَ للمثقف الواعى أو السياسى المستنير أىَ دور فاعل فى الرأى العام على المستوى الفردى أو - حتى - على مستوى المؤسسة .

إن الدورَالفاعلَ يكون خلال التجمعات الفاعلة سواء على شكل نقابات أو جماعات فنية أو جمعيات أهلية .. وما إلى ذلك .

وبغير هذا يظلُ النمط الفاعـل فى عزلة عن الرأى العام مادام فى عزلة مع غيره (أولا) ومع (مواطنيه) من الأغلبية (ثانيا).

وما دمنا نـعيش فى مجتمـعٍ مازال البُونُ فيه شاسـعاً بين ثقافةِ الـنُخبةِ وثقافة الجماهير .

إنَ هذا المناخ لا يصنع أبداً رأياً عاماً

ولقد كان طه حسين أول من فطن إلى هـذه الحقيقة حتى أصبح ضحيةً لها :إذ أهدى كتابـه فى طبعته الأولى إلى (ثروت باشا)، لكـنه لم يلبث بعـد عدة عقـود أن راح يكتـبَ عن المعذبين فى الأرض ويـهدى إليـهم أعمالَه مما يُسهمُ - مع غيرِه - فى صنع هذا الرَأى العام

وهو ما يرتبط بإشارة أخيرة عن معوقات الرأيِ العام

وإذا شئنا أن نقولَ هذا بشكلٍ آخر لقلنا عَن ارتداد التنوير

وغاية ما نريد الـتركيز عليه هنا أن هذا الـنمط من المثقفين المسـتنيرين أسهـموا- بشكـلٍ ما - فى أزمة الـرأيِ العام سواء لـوقوعهم فـى إغراءِ المدينة، أو هيامهم بالفاكهة المحرمة - السلطة - أو بانفصالِهم عن الجمهورَ العريض

وهو دور نؤثُـر ألا نتحدث عـنه كثيرا، فـقد رأيناهم بمـا فيه الكـفاية، وعرفناهم بحيث يصح أن نكف عن الإشارة إليهم مرة أخرى

١٦- والآن، بعد سـبعين عاما عـلى نشر كتـابه (فى الشعر الجـاهلى) نعود إلى سؤال البدء : هل لدينا رأىُ عام فى مصر ؟

من يجرؤ أن يقولَ : نعم

هوامش

(١)فى الشعر الجاهلى، القاهرة ١٩٢٦ انظر الكتاب الأول (التمهيد)

(٢) قرار النيابة فى كتاب الشعر الجاهلى، مطبعة الشباب ٣٠ مارس ١٩٢٧

انظر ما نسب الى طه حسين مما قدم إلى النيابة الصفحات ٢،٣.

(٣) السابق ص ص ٣١،٣٢.

(٥) VATIKOTISN P,S. THE MODERN HISTORY, OF EGYPT.
LONDON 1969,P303

(٦) جابر عصفور ، هوامش على دفتر التنوير، دار سعاد الصباح ، القاهرة ١٩٩٤ ص ٣٠٢.

(٧) مايهمنا هنا هو (تعريف) الراى العام وليس طرق قياسه أو مشكلاته وأطروحاته التقنية أو منهجية قياس الرأى .. وما إلى ذلك، وقد راجعنا عددا هائلا من دراساته لعل من أهمها .

- THE NEW ENCYCLOPOEDIA BRiTIANICO,
MACROPOEDIA,VOLUME 15, LONODON, 1973 - 1974, P. 211.
- GRANO LAROUSSE, ENCYCLOPEDIQUE, VOLUME 7,PARIS
1963 P 967

- موسوعة العلوم السياسية ، ج١ جامعة الكويت ٩٣/ ١٩٩٤، ص ٥٣٥.

- الموسوعة السياسية ،بيروت ج٣ص١٠٣ .

- ندوة : قياس الرأى العام فى مصر ١٠-١٢ مارس ١٩٨١، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، بالقاهرة .

- ناهد رمزى، الرأى العام وسيكولوجية السياسة، مكتبة الأنجلو ،١٩٩١ .

- محمد شومان، الإعلام فى تكوين الرأى العام ١٩٩٤ رسالة دكتوراه مخطوطة مقدمة إلى قسم صحافة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة .

* مادة(الرأى العام) بدائرة المعارف البريطانية .

(٩) ندوة الرأى العام، السابق .

(١٠) السابق ، بحث ناهد صالح ص ٩.

(١١) على الدين هلال، محاضرات فى التنمية السياسية، كلية الاقتصاد والسياسة جامعةالقاهرة ١٩٧٦ ص ص٢٣/ ٢٤.

(١٢) كارل بوبر ، بحثا عن عالم أفضل، ترجمة د أحمد مستجير، هيئة الكتاب، ١٩٩٦ (يلاحظ ان بوبر فى القسم ١١ نجده يعنون اللوحة الأولى بعنوان أسطورة الرأى العام محذرا من عدد من الأساطير فيما يتعلق بالرأى العام)ويلاحظ أن بوبر يطلق مثل هذه التسميات (أسطورة) على المجتمعات الليبرالية كإنجلترا والولايات المتحدة، وهو ما يعجب المرء حين ينتقل إلى المجتمع الليبرالى - كما تعرفه مصر بين ١٩/١٩٥٢ - وحيث قامت ضجة كتاب (فى الشعر الجاهلى) عام ١٩٢٦.

(١٣) الندوة، السابق ، بحث ناهد صالح

(١٤) محمد شومان ، السابق ..

(يلاحظ الباحث أن وراء هذه النظرة السلبية مجموعة من الأسباب والعوامل أهمها : **غياب الديمقراطية فى دول الجنوب ، وضعف مؤسسات المجتمع المدنى ، وهيمنة السلطة المركزية أو التنفيذية وسيطرتها على وسائل الإعلام، وانتشار الأمية، ومحدودية الوعى السياسى) ص٢٩٠.**

(١٥)في الشعر الجاهلى ، السابق ط١ص٢.

(١٦) السابق ص٦.

(١٧) طه حسين، محمد عثمان، دار الشروق ص ص١٩،٢٠.

(١٨)مصطفى عبد الغنى، طه حسين والسياسة، دار المستقبل العربى١٩٨٣ص٤٩.

(١٩)انظر إلى تفاصيل كثيرة لهذا الموقف فى الفصل الاول من الكتاب السابق .

(٢٠) صحيفة الأهرام ٧/ ١١/١٩٢٦.

(٢١) انظر الملحق (١) كتاب طه حسين الى لطفى السيد مدير الجامعة .

(٢٢) انظر الملحق (٢) كتاب طه حسين الى وزير المعارف .

(٢٣) كتب طه حسين سلسلة مقالات بعنوان (بين العلم والدين) فى هذا الوقت وذلك فى صحيفة (الحديث) واستمرت من مارس ٢٧ إلى مايو ٢٧،أيضا، انظر كتابه (من بعيد) ، بيروت ص٥ص٢٨٦.

(٢٤) ناهد رمزى ، السابق ص٨٦.

(٢٥) السابق ص٨٩.

(٢٦) انظر على سبيل المثال :

- كيف يتفلسفون؟ (بدون توقيع) - الكشكول ١٩٢٦/٦/٤.
- طه حسين وجمعه بين المتناقضين (بدون توقيع) الفتح ١٩٢٦/٧/٢٩.
- مؤمن الاتحاد ١٩٢٦/٨/٢.
- مؤمن الفتح ١٩٢٦/٨/٢٦.

- عبد الباقى سرور نعيم (ماذا يريدون من وراء نشر الإلحاد) الاتحاد ١٩٢٦/٩/١.
- محمد رشيد رضا (الدعوة إلى الإلحاد ..) المقطم ١٠/ ١١/١٩٢٦.
- عبد الحق منصور (مصر أصبحت مدينة الملحدين) الفتح ٩/ ٣/ ١٩٢٦.

(٢٧) قرار النيابة ، السابق .

(٢٨ من هذه الكتب انظر :
- مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن .
- محمد فريد وجدى : نقد كتاب فى الشعر الجاهلى .
- محمد لطفى جمعة : الشهاب الراصد .
- محمد الخضير حسين : نقض كتاب فى الشعر الجاهلى .
- محمد الخضرى : محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية.
- محمد أحمد الغمراوى ٠ النقد التحليلى لكتاب فى الشعر الجاهلى .
- محمد عرفة : نقض مطاعن فى القرآن الكريم.

إحسان عبد القدوس

سجين الخمسينيات

اكتفى بمقعد فى الشارع السياسى

فى السبعينيات، وفقط..!!

[١]

على المقهى

ظل إحسان عبد القدوس خريف ١٩٧٦ حائرا بين الضغط السياسى والضغط النفسى .

الضغط السياسى لإلحاح أنيس منصور .. ونجيب محفوظ .. والأصدقاء - كما يقول - للكتابة فى المجلة الرسمية - أكتوبر - بإيعاز من الرئيس أنور السادات فيما يبدو.

والضغط النفسى لتردده الطويل خوفا من التورط فى الكتابة السياسية مرة أخرى ، ذاكرا بواعث ذلك بألم ممض : (هذه الظروف التى أحاطت بى فى أوائل أعوام الثورة - عام ١٩٥٤- وأيامها وضعنى أصدقائى السياسيين فى السجن الحربى) فى مقدمة الجزء الأول من كتابه (على مقهى فى الشارع السياسى).

وقد ظل إحسان لفترة ليست قصيرة حائرا أمام إلحاح هؤلاء الأصدقاء«شبه الرسميين»، وكان تردده النفسى يعود فى الأساس الأول لصراحته فى كتابة المقال السياسى ووضوحه فى نقل أفكاره دونما خوف، فيؤدى به هذا إلى الوقوع فى المحظور كما يقول (.. أن أطلق حريتى فى نشر المقال السياسى).

كان تردده الكبير أمام قضية الصراع بين الحيرة والحرية ..

الحيرة للكتابة كما يحلو له ..

والحرية التى يطمح إليها بدون قيود

ولم تطل حيرته، فلم يلبث أن اهتدى لوسيلة تجنبه - فيما يرى - هذا الموقف، فقد انتهى به الأمر إلى مقهى يقيمها فى(الشارع السياسى)،

ويقول فيها خلال الدخان المتصاعد، والكلمات المجانية ما يريد ، وراح يحدث نفسه : (إذن ، فلماذا لاأقيم مقهى فى هذا الشارع .. واختار له الزبائن .. وأتركهم يتكلمون فى السياسة .. كلام مقاه أى كلام شوارع أى منتهى الحرية ..).

وعلى هذا النحو . شرع إحسان فى امتشاق القلم وهو يصيح (لماذا أتردد؟)

مستريحا إلى هذا الحل الوسط .. أن يكتب مقالة سياسية يقول فيها مايشاء، ويكون المحدث الأول فيها (عجوز) والطرف الآخر، والوحيد ، معه ، شاب، وليكن الموضوع (قضية) أية قضية تعن له على شرط أن تكون من وحى الحاضر السياسى أو الاقتصادى، وعلى شرط أن يكون التناول فيها صريحا إلى أبعد الحدود هكذا فكر، ومن ثم، شرع على الفور فى الكتابة ..

السنوات الصعبة

وقد بدأ إحسان هذه الأحاديث فى تلك السنوات الصعبة من السبعينات من تاريخ مصر، واستمر ينشر فى مجلة أكتوبر الرسمية - بين سنوات ٧٦/ ٧٧/ ٧٨-دون أن يبدى دبلوماسية أو تراجعا أو اتخاذ موقف وسط قط .

فى هذه السنوات تناول قضايا سياسية كثيرة، سواء ما ارتبط منها بتطورات سياسية: (لنذكر: إسرائيل تنسحب من ممرات سيناء / بداية إضرابات الأرض المحتلة فى فلسطين ، تصاعد الصراع فى لبنان، سقوط مخيم تل الزعتر ، مبادرة السادات بزيارة القدس، استقبال السادات لوايزمان، انعقاد مؤتمر كامب ديفيد فى ٥ سبتمبر ١٩٧٧ ،مؤتمر قمة عربى ضد كامب ديفيد ،وعلى المستوى الاقتصادى : شهدت السبعينات تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى، نمو الرأسمالية الطفيلية، فتح باب الاستيراد على مصراعيه، سيادة سياسة السمسرة، وشركات الأراضى وجمعيات

الإسكان والمكاتب الاستشارية واستشراء التضخم، وارتفاع الأسعار وزيادة البطالة . ..إلخ).

فى هذه السنوات تعرض إحسان عبد القدوس فى مقهاه للعديد من هذه القضايا بدون تردد سواء على الجانب السياسى أو الجانب الاقتصادى.

ولأن المواقف السياسية لإحسان من الوضوح بحيث أصبحت بدهيات ، فإن الجوانب الاقتصادية مازالت تحتاج إلى فهم ومراجعة أكثر ..

ومن هنا ، سوف نتوقف عند مقهى إحسان عبد القدوس فى(الشارع الاقتصادى) فهو جزء من الشارع السياسى، وكلاهما شارع واحد يؤدى إلى المستقبل .

القلم : الطفل

بيد أنه لا يمكن فهم موقف إحسان السياسى أو الاقتصادى دون أن نشير إلى خاصية مميزة فى تكوينه. هذه الخاصية أن إحسان عبد القدوس لم ينتم، قط ،لأى تنظيم سياسى أو اجتماعى، كما لم يكن (كادرا) فى أية جماعة طيلة حياته ، فقد جهد الإخوان المسلمون لفترات طويلة على استقطابه حتى إن المرشد العام حسن البنا كان يلتقى بإحسان عبد القدوس (الصحفى حينئذ) كان يأمر بأن يغلق الباب عليهما ((ولا يزعجهما أحد قط))، وقد غالى حسن البنا فى هذا الموقف حتى إن من حوله تساءلوا فى حيرة ويرم أحيانا عن سر هذه الجلسات المغلقة الطويلة بينهما (محضر نقاش مع إحسان عبد القدوس فى ٧/ ١/ ١٩٨٧)، بل أن جماعة من الإخوان المسلمين قالوا إنهم استطاعوا التأثير فى إحسان عبد القدوس فى الفترة التى سجن فيها عدد كبير من مثقفى مصر، وذلك فى (معتقل العامرية)، غير أن إحسان عبد القدوس يرفض هذا، بدليل بسيط - كما اكد لى - انه حين سجن كان (فى السجن الحربى).

كما أن إحسان عبد القدوس رفض الانضمام إلى أى حزب أو تنظيم شيوعى ، فمع أن جماعات هذا التيار حاولوا معه كثيرا، وهو يذكر لى إنه

دخل فى نقاش مستمر مع الاشتراكيين والشيوعيين لفترات طويلة، وقرأ النظرية العلمية لهم ، غير أنه لم يدخل (حظيرة) الاشتراكية قط، وقد سجل تجربته هذه فى كتاب خاص رواية بعنوان الحياة فوق الضباب .

أما الوفديون، فقد رفض إحسان، منذ فترات مبكرة، الانتماء إليهم، بل على العكس، كان يقف - جهارا - فى معسكر العداء لهم ، ويذكر إحسان أنه فى إحدى المرات ذهب إلى بيت مصطفى النحاس - بوصفه صحفيا - بعد محاولة لتفجير البيت لاغتيال النحاس باشا، وحين عرف الشباب الوفدى المتحمس بوجوده، حتى أسرعوا لإيذائه والقضاء عليه، لولا أن انقذته زوجة البدراوى (باشا) ليقفز فوق الأسطح و ليفر هاربا ومن هنا، فمن المؤكد أن إحسان عبد القدوس لم ينتم لأى جهاز أو تنظيم، حتى أن عبد الناصر، بعد الإفراج عنه بعد أزمة ١٩٥٤ قال لمن حوله : إن إحسان لاخطر منه، فهو يكتب مايريده، ولا ينتمى فى هذا لأى تنظيم.

وربما أسهم هذا الموقف - وهو كذلك بالتأكيد - فى أن إحسان عبد القدوس قرر أن يبتعد عن طريق السياسة كلها بعد (الشحططة) التى عرفها - على حد قوله - فى السجن الحربى بالغرفة رقم ١٩ وقد كان هذا بإيعاز (أصدقائى السياسيين الذين وضعونى .. فى السجن الحربى .. بإبعادى عنهم، أوالابتعاد عنى).

وعلى هذا النحو، فإن إحسان عبد القدوس، صاحب المقالات العنيفة قبل ١٩٥٤ لم يكن مرتبطا بجماعة أو تنظيم،و هو ما جنبه السجن من جديد،وهو السبب الذى جعله يتردد كثيرا ليكتب فى السبعينات بعد أن طلب منه الرئيس السادات -بشكل غير مباشر - أن يكتب، ولعل السادات نفسه كان يعرف ، ويوقن، أن إحسان عبد القدوس لا يملك غيرقلمه ولا ينتمى إلا لفكره.

ويبدو أن السادات كان يريد قلم احسان عبد القدوس (المؤيد) له، بحجة صداقة قديمة لم ينكرها إحسان أو السادات تعود إلى ماقبل الثورة.

غيـر أن إحسان عـبد الـقدوس الذى كـان يملـك الابتـعاد عن المناخ السياسى الذى أودى به إلى السجن، لم يكن يملك التحكم فى قلمه، فقد كان هذا القلم ، كما يطلق عليه دائـما، (كالطفل المدلل الذى لا أستطيع أن أتحكم فيه).

غير أن الطفل المدلل عند إحسان، الجموح ، كان لدى السادات ، مهما اشتط ، طفلا يمكن تجاهل حركته العـنيفة العالية، فهو - فى رأى السادات - فى سن الطفولة إذا علا صوته ، أما إذا خـفت ، فنحن فى انتظاره ، لأننا نمـلك مـن الأريحـية والحـريـة الكـثيـر مما نـريـد أن نجهـر به فـى عصـر الحريات..!!

هكذا كان الاتفاق غير المكتوب بين السادات وإحسان ..

وهو اتفاق لم يحسن الطرفان فهمه و - حتى - تطبيقه ..

وهوالاتفاق الذى جلس به إحسان على مقهاه .. ليكتب ويثرثر..

عود إلى (المقهى)

والآن ، فلنعد إلى المـقهى ، فى الشارع السياسى ، لـنرى ، كيف حاول إحسان عبد القدوس أن يدير حديثه مع الذات / الشاب .

إنه حديث بصوت عال لم يجرؤ علـيه غير إحسان عبد القدوس ..من القضايا الاقتصادية التى ذخر بها مـقهى احسان قضية : الانفتاح الاقتصادى وعديد من الإجراءات الاقتصادية فى هذا العقد .

الانفتاح السعيد

فى هذا العقد كانت سياسة الانفتاح الاقتصادى التى صدر قرار لها من مجلس الشعب منذ عـام ١٩٧٤ تحاول تشكيل بـنية المجتمع المـصرى من جديد، فقد تحولت الرأسـمالية الوطنية إلى رأسمالية طفـيلية خلال أعمال مريبة، وتشكـلت فئات جديدة تتأبى علـى التصنيف لتسيطـر - تلقائيا - على مقدرات الشعب المصرى .

وقد نتج عن هذه السياسة العديد من الانحرافات لعل من أهمها فتح باب الاستيراد على مصراعيه فى غياب القانون، بدأت سيول السلع الترفيهية، وانخفاض مستوى المعيشة، سوء توزيع الأموال، وكان من أهم ظواهر هذه الفترة ضعف واهتزاز الطبقة الوسطى وما إلى ذلك مما تناوله الكاتب فى عديد من حواراته فى وقت حدوثه دونما تحرج.

إن إحسان عبد القدوس يرسم خارطة شبه دقيقة لما كان يحدث فى هذا الوقت، فيقول هادئا من حديث طويل للعجوز :

(-.. بعد أن بدأ عصر الانفتاح وإطلاق الحريات الاقتصادية .. تطور الوضع الطبقى .. ضعفت الطبقة البيروقراطية أى طبقة الموظفين، وظهرت مكانها الطبقة الرأسمالية وهى طبقة صريحة وقحة تجاهر بمستوى معيشتها علنا .. وفوجئت الطبقة العاملة بزجاجة كازوزة تحمل اسم (سفن آب) تباع فى الأسواق بخمسة وخمسين قرشا ، بل وجدت « بيبسى كولا» أخرى غير التى تصنع فى مصر بثلاثين قرشا .. وفوجئت بأحذية لا تصنع فى مصر ويباع الزوج منها بثلاثين أو خمسين جنيها وفوجئت بمصريين لم يعرفهم أحد من قبل يركبون سيارات بويك وكاديلاك علاوة على المرسيدس والشيفروليه وأصبح لايركب سيارات نصر الا الفقراء..و..)(اكتوبر،ديسمبر ١٩٧٦).

معنى ذلك كله هو زيادة الفجوة بين الطبقتين الموجودتين ، وهى زيادة كانت تنذر - فى وقتها - بخطر مستطير ، ولم يكن السبب فى هذا بعض الأفراد الفرادى داخل الوطن ، وإنما كان المسئول، الأول، هو قرار (الانفتاح).

ولم يكن قرار الانفتاح كما أعلن عنه هو المسئول، وإنما كان هذا القرار الذى لم تضع له ضوابط تحول دون الإسراف فى تجاوزه، لم يكن الانفتاح الاقتصادى هو وراء ما حدث، وإنما كان عدم ترشيده، وعلى هذا، لم يناد إحسان بإلغاء هذا القرار ، رغم أخطاره الكثيرة، وإنما نادى بتحديده

بشكل إيجابي، فحين يقول الشاب ألا كان من الأجدى أن نلغى الانفتاح يقول العجوز :

(-.. كان يجب أن نحدد الانفتاح بحيث لا يقتصر على المواد والصناعات الاستهلاكية التى لا تكون إلا من نصيب الأغنياء . وأزمة الموظف الذى يتقاضى أربعين جنيها ليست أزمة الأكل ولكنها أزمة الوصول إلى المستوى الجديد للمعيشة..) (السابق).

الحل يبدأ من هنا

غير أن الترشيد كان يتخذ وجوها عديدة، وعلى سبيل المثال، فإن أحد وجوه الحل لم تكن بزيادة المرتبات والأجور والعلاوات، وإنما كان لها وجه آخر ، كيف، يجيب:

(-الحل :، هو التقريب فى مستوى المواد الاستهلاكية بين الطبقتين) (ديسمبر ١٩٧٦).

وكان من الطبيعي أن يقرر العجوز (إحسان) أننا فى عصر الانفتاح تحولنا إلى طبقتين فقط يسميهما (طبقة الاشتراكية وطبقة الرأسمالية).

وقد كان هدفه هو محاولة التقريب بين الطبقتين، كانت الطبقة الأولى يسميها الطبقةالسهلة (لسهولة واقعها) والأخرى الطبقةالصعبة (ربما مشتقة من العملة الصعبة)، ومن هنا ، فإن محاولة التقريب هذه لابد أن تتخذ الشكل المركزى، أى أن تقوم الدولة به ولا تتركه للأفراد .

وقد حاول الكاتب أن يعثر على عديد من الحلول التى تحول دون تدهور الطبقة الفقيرة، من هذه الحلول أن تحاول الدولة تكشف الطريق للتعامل مع الغنى الذى أصبح مراوغا بالنسبة للدولة، والفقير الذى أصبح مثارا للقلق والاضطراب ، إن العجوز يقول مقترحا:

(الطريق هو إعادة تنظيم البطاقات التموينية التى تحدد الأسعار الرسمية بحيث لا تمنح إلا لمن يقدم إثباتا لمستوى دخله .. فإذا كان دخله أقل من مائة جنيه فهو مسئول عن نفسه .. وتتسع مجالات هذه البطاقات : أى

تشمل التعليم المجانى والعلاج المجانى وكل ما هو مجانى) (فبراير ١٩٧٧).

وبهذا تنتفى الهوة بين الطبقتين ، وتحول أخطار الانفتاح دون انتفاء العدالة بين أبناء الوطن، ومن ثم، الحيلولة دون الغضب والانفجار .

الانفتاح .. ولكن

ومع أن العجوز صرح بأنه لا يعترض على الانفتاح بمبدأ، فإنه حاول المرة تلو الأخرى، أن يجد الطرق التى يحاول بها الخلاص من وجهه السيئ..

كانت القضية فى الأصل أن ننادى بالاشتراكية ثم نفتقد مظاهرها..

وهذه القضية نجد أن إحسان عبد القدوس تعرض لها فى عديد من قصصه ورواياته فى هذه الفترة، وعلى سبيل المثال ففى قصة (فنجان قهوة فوق حلة ملوخية) فى مجموعة (النساء لهن أسنان بيضاء)، نجلس وسط الأغنياء الذين لا يجدون غير أحاديث الشراب والطعام والنساء، ومع هذا فهم فى مجتمع اشتراكى كما يزعمون، إن بعضهم يصيح فيهم : (والله عال .. بيت مشهور بالملوخية .. وبيت مشهور بالقهوة .. وبيت مشهور بأم على .. وبيت مشهور بالكنافة.. وبعده كدة نقول اشتراكية) (النساء .. ، مكتبة مصر، بدون ص٣٥).. كذلك نجد آثار الانفتاح كما عرفها فى العديد من الروايات فى فترة السبعينات هذه، وإن حاول أن يتوسل فيها بالجانب الفنى من أمثال (حتى لايطير الدخان/ يا عزيزى كلنا لصوص) ..الخ.

بيد أنه إذا كان يتذرع بالدلالة الفنية فى أعماله الإبداعية ، فإنه على المقهى راح يتحدث بوضوح جارح، إنه يقول فى حديثه (٤ يونيو ١٩٧٨): (- ..نحن نعلن الانفتاح الاقتصادى والحرية الاقتصادية، برغم ذلك نتغنى بالاشتراكية والقطاع العام ونحن نعلن سيادة القانون وبرغم ذلك نعتمد على القرارات لا القوانين ..).

على أننا إذا اعتبرنا أن الانفتاح كان هو (الوحدة اللحنية) المميزة فى هذا العقد، فان العجوز راح، عبر تنويعات كثيرة ، يحاول استنفادها، تأكيد هذه الوحدة كما رآها ..وعلى هذا ، نعثر فى أحاديثه التى امتدت حتى ديسمبر ١٩٧٨ عديدا من الاجراءات الاقتصادية التى تعمل على تأكيد الواقع الردئ وتعميقه، وسوف نشير إلى أهم هذه الإجراءات بترتيبها الزمنى :

إلا عبده السباك:

الضرائب ..

لقد كان من نتيجة التطبيق الخاطئ لسياسة الانفتاح ان استطاعت الفئة الطفيلية الجديدة التهرب من دفع الضرائب فان (الموظفين من أولهم إلى آخرهم ليسوا سوى أرقام مسجلة فى دفاتر الدولة.. تفتح الدولة دفاترها وتتحكم فى أرقامها .. إلا عبده السباك فهو ليس رقما إنه شخصية كاملة فى مواجهة الدولة فكيف تتحكم فيه ؟ كم تعرف كم عملية قام بها فى كل يوم ؟ وكم ربح من كل عملية ؟ .. إن دفاتر عبده السباك ملك خاص له لدرجة أنه قرر ان يستغنى عنها) (فبراير ١٩٧٧).

معنى ذلك ان الدولة لا تأخذ ضرائبها من المصب ، اى، انها تترك الفنان الذى يزاول دوره فى كباريه ، فيحصل على مبالغ طائلة، وتحاول ان تحصل الضرائب من المنبع الاول .

اذن كيف تتحكم الدولة فى مثل عبده السباك ؟ يجيب العجوز (– ان تعامل كل طبقة على حدة وبقوانين خاصة .. مثلا ..و.. لماذا تتحمل الدولة فرق السعر عن رجل يكسب الف جنيه فى الشهر أوحتى مائة الف ؟ بل لماذا تعينه على تحمل ثمن السكر أو الارز والسماد او الفراخ .. لماذا ؟) ويظل السؤال معلقا ، ويعود العجوز ليرسم الإجابة عبر الطريق : (الطريق هو إعادة تنظيم البطاقات التموينية التى تحدد الأسعار الرسمية بحيث لا تمنح إلا لمن يقدم إثباتا لمستوى دخله ..) (فبراير ١٩٧٧).

وواضح من هذا أن العجوز يرى أن الضرائب والدعم وجهان لعملة واحدة ، وهى، كيفية مواجهة النظام لواجباته، وخاصة، بالنسبة لمحدودى الدخل .

المجتمع المختلط

إقرار الذمة المالية

والبحث عن العدل يظل دائما ديدن العجوز، إنه يناقش طويلا أزمة من أزماتنا التى نغرق فيها، ونقصد بها، أزمة المطالبة (بقرار الذمة المالية).

وهو يعترف أن الأخذ بهذا القرار، وان كان من قبيل (التأمين الاقتصادى)، فإنه يظل خطأ مادام لايؤدى أبدا إلى تقدير اقتصادى إيجابى، تتمخض عنه قرارات واعية

إن قرار الذمة نوع من أنواع (المنظرة) وحسب..

وبعد أن يدور الحديث طويلا مع الشاب كعادته، فى عرض أية مشكلة، فإنه يقفز فجأة إلى الحل.. إنه يستعرض ألوان التعرف على الثروات إما بالمخابرات أو الوسائل الخاصة، كما يشرح كيف كانت الثروات تحدد بالانتماء السياسى أو الموقف من النظام .. إن طبيعة نظامنا هو المجتمع المختلط ..

إن الأمور تختلط فيه فى كثير من النواحى ..

ويعود الشاب بعد ذلك كله ليسأل : - والحل، ويعود العجوز مرة أخرى ليسأل : والحل ،ويجئ صوت أحدهما، أو كليهما، فالحل هنا واحد، ومن هنا، فإن الشاب الذى يتبرع به، يقول :

(الحل .. هو أن نكون أكثر صراحة فى تحديد مجتمعنا الاقتصادى حتى لا نعيش مجتمعا رأسماليا بقوانين وعقلية اشتراكية، أو نعيش مجتمعا اشتراكيا بقوانين وعقلية رأسمالية) (أبريل ١٩٧٧).

المهم هو تحديد مانريد، يأتى بعدها كل شئ.

حالة مفتش التموين

الأسعار

والعجوز يعلق ساخرا من جهود وزير الداخلية فى هذا الوقت من تشديده فى الأسواق من أجل ضبط الأسعار، منتهيا، إلى أن المسئولية إنما تقع على مفتش تموين للسوق، كيف ، يجيب :

- .. حتى الضبطية القضائية وتحت أمره داخل السوق ضابط بوليس صغيرلا يتجاوز رتبة يوزباشى .. كان هذا يكفى سيطرة الدولة على الأسعار .. إن الذى يحقق سيطرة الدولة هو النظام الإدارى والحرص على هذا النظام وليس شخص الوزير .. ومع الأسف أضعف ما فى الدولة الجهاز الإدارى) (سبتمبر ١٩٧٧).

معنى ذلك إن العجوز يؤمن أن الحل فى يد الدولة ومن خلال مفتش التموين غير أنه يستدرك أن موظف التموين نفسه (ممثلا فى مفتش التموين) مازال مستواه الاجتماعى ضعيفا، وهو مايخاف منه عليه ،ومع ذلك يظل السؤال قائما : وما الحل ؟، هل هو رفع المرتبات ، الإجابة تكون، أن نتيجة هذا تظل ارتفاع الأسعار ويبقى الموظف فى حاجة ماسة. .ويظل السؤال قائما ، كيف ؟ ويتحير العجوز ، فيصمت ، غير أن المشاكل لا تصمت ، سرعان ما يتوقف عند مشكلة أصعب من سابقتها .

البطالة

مشروع للبطالة

وقد كان العجوز يدرك جيدا أن مشروع (الانفتاح) السعيد يصل بنا إلى كثير من المشكلات، وقد استطاع أن يحدد منها فى هذا الوقت المبكر مشكلة (البطالة) ، ففى ظل مجتمع غير منظم، تهيمن عليه فئات إدارية عاجزة، وقراريصدر من السلطة المركزية دون القدرة على تنفيذه تنفيذا صالحا.. فى ضوء هذا كله تنشأ مشكلة البطالة..

ومن مشكلة البطالة تنشأ مشكلة الهجرة إلى الخارج .

وهى مشكلات وجدت جذورها منذ السبعينات حتى الآن .

وقد وجد العجوز حلا لهذه المشكلة فى هذا الوقت المبكر أن ينشأ لهم (مشروع للبطالة)، على اعتبار أن البطالة حالة خاصة يصرف لصاحبها مايسمى (إعانة بطالة) ، و يضيف:

(.. إن هذا هو الحل الوحيد لمشكلة زيادة العمالة التى تسببت فى خراب كثير من الهيئات والمصانع الإنتاجية ..) (نوفمبر ١٩٨٧).

ومع أن هذا يعد من الخطر على المشروعات وأجهزة الدولة ، فإنه لا يجد بديلا أرحم منه ، يضيف العجوز :

(- إن أى وضع أرحم على الإنتاج من تكدس الموظفين داخل الشركات والمصانع والهيئات الحكومية وهم لا يعملون شيئا) (السابق) .

وبالطبع، يلمح العجوز إلى خطر أبعد من هذه الأخطار وأكثرها مدعاة للتأمل، فزيادة التعطل يدفع بالمتعطلين إلى (التكدس فى الشارع السياسى). وهوقول على مافيه من دعابة- فيه من الفطنة واللماحية

انتفاضة ٧٧

النبوءة

كانت كتابات العجوز وحديثه فى (الشارع الاقتصادى) بمثابة نبوءة لم تلبث أن تحققت بمجئ شهر يناير من عام ١٩٧٧، إذ كان عليه أن يعود إلى هذه الانتفاضة التى أسماها السادات فى حينها (انتفاضة حرامية) ، فيؤكد أن ماحدث ليس وراءه - كما يردد -شيوعية أو لصوصية.

لقد كانت لديه الجرأة ليصارح محدثه فى هذا الوقت أن أسباب ما حدث هو: (العجز الاقتصادى أو على الأصح الفقر الاقتصادى)

(يناير ١٩٧٧)

هوامش

(١) فصول الرواية وفن القص، مارس ١٩٨٢ انظر (شهادة إحسان عبد القدوس).

(٢) إحسان عبد القدوس، مجموعة وكر الوطاويط، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ص ص١٢١،٢٢٣.

(٣) انظر تفسير ذلك فى مقالة فى مجلة القاهرة (.مدخل إلى الرواية السياسية عند إحسان عبد القدوس) مصطفى عبد الغنى، عدد ممتاز عن الرواية ٩/١٩٨٨.

(٤) رقم (١)ص ص ٢٢٧/٢٢٨.

(٥) ردد جرامش هذا فى عديد من مصادره وخصوصا (رسائل السجن) .

(٦) وكر الوطاويط رقم (٢).

(٧) محضر نقاش مع إحسان عبد القدوس بمكتبه بالأهرام فى ٣٠/ ١٢/ ١٩٨٨.

(٨) محضر نقاش ، السابق .

يوسف إدريس ..

أسلوب الصدمة وأزمة الاقتصاد..

كل ما بقى ليوسف إدريس

المفكرة

تعد (مفكرة) يوسف إدريس التى كانت تنشر فى الأهرام لسنوات بمثابة (يوميات) يسجل فيها صاحبها قضايا المجتمع المصرى والتغييرات الحادة فيه منذ السبعينات حتى بداية التسعينات .

وقد كان مدركا هو طبيعة هذه (المفكرة) إلى درجة أنه راح يشير إلى مثل ذلك، حتى إنه نشر بعض هذه الأفكار فى كتاب فى فترة تالية بعنوان استوحاه من اسم صاحب «عجائب الآثار » المؤرخ المصرى المعروف عبد الرحمن الجبرتى، بل وزاد عليه ، أنه راح يبث فى هذه المذكرة شظايا من نار فى كل مرة بما كان يحرك كوامن المجتمع ويعبرعنه .

كان أسلوب «الصدمة »الذى استخدمه كفيلا بإيقاظ الهمم والضغط على المسئولين وإثارة المسائل الاقتصادية - ضمن ما آثار من مسائل كثيرة - وهو ماوجد استجابة له فى عديد من المرات سواء فى تحرك القراء والمتخصصين بالرد عليه أو الكتابة معه، أو اتخاذ القرارات التى تصنع المواقف الإيجابية التى تعبر عن التغيير، وهو كان أهم دوافع يوسف إدريس .

والواقع أن (المفكرة) بقدر ما أثارت رد فعل إيجابيا فى كل مرة ،أثارت رد فعل سلبيا ، تمثل فى اتهام صاحبها - يوسف إدريس - بأنه لم يعد ليمارس القصة القصيرة- همه الأول - حتى أنه كان يردد أن الأمير - أمير القصة العربية ، وقدكان ذلك لقبا استحقه عن جدارة منذ الخمسينات والستينات - تخلى عن مكان الإمارة إلى قضايا لاتنتمى إلى الإبداع ..

وقد كان يحلو لمن يتهمه مثل هذا الاتهام أن يضيف - مجتهدا ، وبحماس- أن إدريس لم يبتعد عن القصة القصيرة عن عمد ، وإنما

العكس هو الذى حدث ،إذ أن القصة القصيرة هى التى ابتعدت عنه ، ومن ثم ، فإنه فرغ مـن كوامن الإبداع ، فلم يجد لديـه - فى حالة الإفلاس - إلا أن يعود إلى المقالة .

وقد وجد من يحبذ هذا الرأى ، وقـد كنت واحدا ،ممن ذهب إلى ذلك ،ودافع عنه ، فى الصفحة الثقافية فى الأهرام نفسها ..

غير أن جانبا آخر من القراء والمتخصـصين راحوا يتحدثون عن أهمية (المقال)عند يوسف إدريس (وهويعنى ، ضمنا، إنه لم يتخل عن القص) ، وذلك يشيرفـى المقام الأول إلى تبرير ،يذهب إلـى أن إدريس يقوم بدوره فى الحـياة العامـة بما لايقل عـن الدور الذى كـان به حين يـكتب القـصة القصيرة..

ورغم أن يـوسف إدريس كـان أول من يعـلن عن هـذا الرأى ، فكـنا لانعول كثيرا علـى رأيه ، على اعتبار أنه صاحب (القضية) ، حتى حين كان يغلو ، فيعلن ، إنه فى كل مرة يكتب (مقالا) كان يضع فى ذلك المقال بذور القصـة القصيرة والروايـة ودراما المسرح .. وما إلى ذلـك ..وقد وجد يوسف إدريس - أثناء حياته - من يؤيد مثل هذا الاتجاه ، لعل من بينهم ، سان سوميخ الذى سمع إدريس ، من بعيد ، قبل أن يقرأ كتابه الدى كتبه عنه ، تحـبيذ هذا الـرأى ، وراح آخر ،يشبه إدريـس بالامريكـى والف نادر الذى كان -عبر مقالاته النارية - يدافع عن المواطن فى بلده وقضاياه .

واذا كان الرأى حول كتاباته وما اذا كان يجب أن يؤثر الإبداع أم المقال قد اشتعل طويلا أثناء حياته ، فـإنه، بعد أن رحل ،تيقن أن يوسف إدريس كان من بـين كتابنـا اكثر وعيا بخـطورة ما يكتـبه - خلا القصـة والرواية -وهو ما يعـززه طبيعة ما يكـتب من التطرق للقـضايا الخطيرة فى حـياتنا والأسلوب الذى كتب به ..

لقد أصبح من اليقين الآن بمكان أن مـاكان يكتبه أدريس كان مناسبا

طبيعة المجتمع المصرى ، وأن مفكرته كانت ضرورة لمواجهة حالة الجمود التى كنا نعيشها جميعا، فى حين ،لم تكن الصقوة المثقفة لتجد من يعبر عنها ..

وهو مايدفعنا، أكثر للاقتراب من طبيعة هذه (المفكرة) ..

كان يوسف إدريس أول من يفاجئنا حين يقول أ ن الكثير مما يكتب من مقالات إنما هى أكثر جودة « من أى قصة قصيرة حتى لكاتب غربى » ، وهو مايعنى عدم الانتقاص من قدر المقالة ، وإنما يصنفها بأنها « أدب » - رغم أنها كذلك كانت تجد فى ذلك الوقت من يخرجها من دائرة الادب - ،فهى ،لديه ، تتناول قضاياعامة وأكثر حساسية، كما أنها يمكن أن تجاوز طاقة (القصة القصيرة) إلى آفاق أرحب، وكثيراً ماسمعت يوسف إدريس ينطق لفظة (الأوتشرك) مفسرا إياها بسرعة أنها هى أدب المقال الذى يكتبه ويحرص عليه .

وهو مايشير إلى أن يوسف إدريس ما كان يحب أن يقلل من قدر (المقال) ، وإنما يعمق قيمته ، بأنه يحتوى، كل خبرات الأجناس الأدبية كلها ، فضلا عن قيمته الخاصة، التى تهيه مباشرة تمكنه من الوصول إلى صاحب المصلحة (القارئ) .

وهوما يعنى - حين نعود إلى إدريس - أن ذلك القاص / الأمير/ حين يعيه التعبير، وتتكاثر عليه المشكلات اليوبية والمسيرية الثقيلة، فإنه كان يضيق بأى شىء، ولايستطيع الخضوع لترويض شكل إبداعى معين، فيجمح إلى المقالة (المفكرة) ليقول هانك - بشكل انطباعى، مباشر، حاسم - ما يريد أن يقوله بغير مقدمات ..

وهو مايصل بنا بسرعة إلى طبيعة يوسف إدريس - الحصان الثائر -، فهو لم يكن، ليقف، إلى جانب كاتب منظم شديد التنظيم كنجيب محفوظ، كما لم يكن ليقارن بكاتب ناعم شديد النعومة كيحيى حقى، أو

متوثب شديد التعبير كاحسان عبدالقدوس ، وإنما كان حريصا على تمزيق ورق السوليفان فى أى موقف ، ليخرج منه دون إمهال ليغير من الواقع(القدرى) قبل أن يصبح جزءا منه .

بهذا الشكل ،كان يوسف إدريس ، الحصان الجامح، المختلف عن كل ما حوله الغاضب من كل من حوله ، الثائر على كل مايعرفه ومن يعرفه ..

وقد يكون من المهم هنا أن نشير -بقصد المقارنة فقط - بينه وبين بعض الكتاب الذين أحبهم وتأثر بهم ، على أن يكون هدفنا الوحيد الاقتراب من طبيعة يوسف إدريس فى المقال الأول .

إن شبها لانجده ، قط ، بين إدريس وكاتبه المفضل (تشيكوف) ، فحين كان تشيكوف بارعا فى القص ، فإن صيرورة القص لم تكن لتؤدى إلى - أو بواسطة - العنف ، وإنما كان يطرق الواقع بعلامات ناعمة هادئة ليصل إلى مايريده سالكا المسلك البطئ ، وإن يكن المؤثر، فى حين كان يوسف إدريس (رغم إعلانه لأكثرمن مرة تأثره بتشيكوف) .. لايسلك نفس السيرورة فى الوصول إلى ما يريد ، وإنما كان يستخدم أسلوبه المميز العنف ، والطرق بشكل يحدث الصدمة ليصل إلى مايريده سالكا المسلك الحاد ليوصل فكرته، فهو، على النقيض من تشيكوف ، يؤثر التعبير الحاد سواء كان ذلك بالشكل الإبداعى ، أوكان ذلك - وهو ما يهمنا هنا - بالشكل الفكرى الذى حاول التحليق به فى (مفكرته) الأسبوعية ..

ولذلك ، فإن تأثير تشيكوف فى إدريس لم يكن هو هو تأثير كاتب آخر - بيراند يللو - فهذا الأخير ، كان يستخدم من الأدوات الفنية - بما فيها المؤثرات البريختية - ماكان يقرب بينه وبين إدريس (وكثيرا ما أعرب إدريس عن إعجابه بالكاتب الفرنسى) ..

إن دراسة لم تكتب بعد حول التأثيرالعكسى بين تشيكوف وإدريس ، والتأثير المباشر بين بيرانديللو وإدريس، حتى إننا يمكن أن نلحظ -

بطريقة مقارنة -هذا التأثير المشترك فى مسرح الاثنين : الكاتب العربى والكاتب الفرنسى .

على أية حال ،فإن هذا الحس العاصف الراعد ليوسف إدريس يتناثر فى (مفكرته) لسنوات ، وفى عديد من الجوانب ، غير أن الجانب الاقتصادى يظل من أهم الوجوه التى لابد من التنبه إليها فى رحلة (المفكرة) طيلة السبعينات والثمانينات .

وسوف تتحدد درجة اهتمام يوسف إدريس بشكل غير منتظم تاريخيا، غير أن تعاملنا مع مفردات المسألة الاقتصادية لديه سوف يتم حسب الترتيب الزمنى لورودها فى كتاباته ، واضعين فى الاعتبار أن مايحدد درجة اختيارنا لهذه القضية أو تلك يكون درجة اهتمام يوسف إدريس بها، وهو اهتمام يكون ، نابعا ، فى التالى ، من أهميتها بالنسبة لجموع الناس.

وسوف نرى -أيضا - أن طبيعة المسألة الاقتصادية التى يتعرض لها يوسف إدريس لاتنبع - كما هو الحال لدى أدبائنا ومفكرينا فى الأجيال السابقة عليه - من المقارنة المستمرة بين اقتصادنا المتخلف واقتصاد الغرب المتقدم ، فطبيعة التطور الاقتصادى الآن لاترتبط بالغرب بقدر ماترتبط بموقفنا المتخاذل من اقتصادنا ..

إن القضية الاقتصادية ترتبط الآن بالداخل وليس بالخارج .

لايعنى ذلك، أن الخارج ينتفى تأثيره على اقتصادنا كلية، إذ أن آثار صندوق النقد الدولى والهيمنة الاقتصادية ،ومظاهرها من «ضريبة مبيعات» وضرائب ،..وما أشبه تعمل تأثيرها على اقتصادنا ، غير أن العوامل الداخلية تكون أولى بالعناية إذاكنا - حقا - نعتقد أن عصر الاستعمار الاقتصادى المباشر ولى .

إن يوسف إدريس لم يهتم بقضية التطور الاقتصادى أوالعمل ورأس المال أو طبقات المجتمع فى ظل هيمنة غربية كما فعل أجدادنا، لكنه، اهتم

بالوجه الحقيقى للأزمة الاقتصادية التى نحياها ، ونقصدبها، تقاعسنا عن جنى ثمار أجدادنا فى المجال الاقتصادى ، واستهانتنا -أو إهمالنا -بالبحث عن مصدرثابت للحصول على خبزنا اليومى (القمح) ..إلخ .. ولهذا ،فإن أول مشهد يلفتنا إلى المسألة الاقتصادية عند يوسف إدريس هو هذا المشهد الذى رأيناه فيه يقف فى ميدان طلعت حرب، أمام تمثال المجاهد الاقتصادى الكبير حزينا واجما لايستطيع أن يرد على أسئلة الرجل الذى قضى حياته كلها لبناء الصرح الاقتصادى المصرى وتحريره من ربقة المستعمر ..

الاقتصادى والأديب

المسألة الاقتصادية

إن الأديب يجيب عن أسئلة الاقتصادى حزينا واجما :

(-تقصد شركة مصر للتمثيل والسينما . رحمها الله

(-سينما ستديو مصر أعتقد أنها مغلقة للتحسينات منذ أكثر من عشرسنوات وللآن لا تمت تحسينات ولافتحت أبوابها للجمهور .

(-ستديو مصر .. لاينتج فيلما واحدا وأخيرا أجروه لشركة تليفزيون

(-و..بعد الانفتاح ، جئنا بالمنسوجات -تصور ياباشا - لتنافس «الليـنوه»وال جيل» جئنا بالموكيت ومن أغلى المصادر لينافس مصانع السجاد الرائعة بدمنهور .. (و). فإذا ببعضنا يستورد الغازات الخانقة والسائلة والسفن أب

ويستمر إدريس ليستعيد بعض مآسى الاقتصادى الكبير ويتتبع مصيره:

(المضحك . المضحك إلى حد البكاء . ياباشا أن الشركة التى أسستها وسميتها «شركة بيع المصنوعات المصرية » لتتخصص فى عرض وتسويق منتجاتنا المصرية فى مصر أولا ثم فى بلادنا العربية والأفريقية ثم فى العالم

هذا الشركة هى الآن لبيع المصنوعات المستوردة كل مافيها مستورد ، تنافس تجار الشواربى وأصحاب البوتيكات فى استيراد ورق الحائط الانجليزية والسجاد البلجيكى والمصنوعات الفرنسية والايطالية واليابانية. أصبت باختناق وأنا أرى فاترينتها وفترينة عمر افندى وصيدناوى ، حتى أيام الخواجات . كانوا يفضلون أولا عرض البضاعة المصرية لأن المصريين أيامها كانوا فخورين بصناعتهم الوليدة وبمصريتهم الوليدة، أما الطبقة النجسةالتى فى يدها النقود الآن فهى بقدرما تجعجع بذكر (نحن مصريون)،ومصر أولا وأخيرا إذا ذكرت الثقافة أوالمعرفة أو تشغيل العقل، تصاب بالأرتيكاريا إذا اضطرت لشراء مصرى أو لاستعماله)

ينظر يوسف إدريس إلى طلعت حرب فى الميدان المسمى باسمه ، ثم يستطرد (تصور ياباشا أنا اشعل سيجارتى المستوردة بعود كبريت مستورد بينما صناعة الكبريت فى مصر منشأة منذ سنة ١٨٣٠ وبينما لدى شركة النيل كبريت قيمته مليون جنيه احترق – فى مخازن الشركة لأننا نعطى بإجرام شديد تصاريح لاستيراد كبريت أجنبى ثمنه خمسة أوسبعة أضعاف الكبريت المصرى)

بييرو طلعت

والغريب أنه فى الصباح الذى اتصلت فيه زوجة يوسف بالأهرام من أحد المستشفيات المتخصصة بلندن حيث يعالج يوسف إدريس كانت تنشر، فى أهم الصحف الرسمية إعلانا لترويج ملابس للرجال من محلات (بيير كاردان)فى مصر، وعلى هذا النحو، أو من السخرية، أن قارئ الصحف اليومية كان يقرأ عن سوء حالة يوسف إدريس والإعلان عن بيير كاردان فى القاهرة والاسكندرية فى آن واحد.

ولم يقتصر بيير كاردان على عديد من المحلات الخاصة فى العاصمة والثغر، بل كان يغزو المحلات التى اضطلع بإنشائها طلعت حرب منذ أكثر منذ نصف قرن لتمصير الصناعات، فإذا بالمصنوعات (الكارداناية)

تغـزو محلات القـطاع العام حـيث معـقل الاقتصـادى المصرى فى (عـمر أفندى ،الصالون الأخضر، شيكوريل، صيدناوى .. إلخ) .

لقد تغلب الآن بيرعلى طلعت ..

ولنعد الآن مرة أخرى إلى نفس (المفكـرة)لنرى إدريس يقول فى مقالته التى اختارلهاعنوان (عن عمد اسمع فتسمع) وجعلها عنوانا لكتاب صدر له فيما بعد ، يقول :

(وأنا أفـهم أن يصيـب النزق بعـض الأفراد أو التـجار أما أن يصـيب النزق العمـود الفقرى لصناعتنا وتجـارتنا الوطنية أما أن تتحـول شركة بيع المصنوعات المصرية إلى بوتيك للبضائع الاجنبية فهنا لايصبح النزق نزقا ، وإنما يصبح خيانة ،لقدكافحت مصر مئات الـسنين لكى تستعيد استقلالها السياسـى ولهذا فهى تحكم بالاعـدام على أى إنسان يحاول إخـضاعها أوسرقة هـذا الاستقلال ولقد كـافحت مصربـك ياباشا ومن قبـلك ومن بعدك وكافحت طويلا من أجل أن تكون لنا صـناعتنا وتجارتنا فإذا انتهينا إلى إننا أصبحنا نستورد اللبنً الزبادى ،..تصور ياباشا) .

ولهـذا كله ، لم يـكن من الغـريب أن يجأر طـلعت حرب ويـصرخ وعيناه تقدحان بالنار فكل ماجـاهد من أجله أثناء ثورة وطنية أصبح الآن تذروه الرياح ، لابفعل السـيطرة الخارجية، وإنما بفعل التـقاعس الداخلى ، وقد حرص إدريس أن يسجل صرخاته وهو يصيح :

(..يامن علمـتكم وطنية واقتصـاد الوطنية .. يا من مت أحـلم بجيش يحمى إنساننا واقتصادنا واستقلالنا ..

أين ذهبتم ..أضاعتكم المناصب والـتوكيلات ..أمات عندكم الضمى .. يامصرى ..أين ضميرك الاقتصادى .. أين ؟!أين.؟!)

ويكون على يوسف إدريس ليرحـل وحده ، تلاحقه صرخات طلعت حرب ، ليـعاين ويحذر من ظـواهر اقتصاديـة أكثرخطورة وأبعـد أثرا فى الاقتصاد المصرى.

قضية تجريف الارض :

وتحت عنوان مثير راح يوسف إدريس يعرض لقضية تجريف الأرض،ففي مقالته (الذين يأكلون أمهم) راح يتحدث عن الطابور الخامس (من المجرمين) الذى يحرق أثمن ماتمتلكه مصر طمى النيل العظيم ، لتصنع منه طوبا أحمر، وتقطع أجزاءه الأخرى من الأراضى الزراعية المنتجة لتقام عليها بيوت، وقد حدد هؤلاء المجرمون بأنهم من جميع الطبقات سواء الأغنياء أو الذين يذهبون إلى البلاد العربية من الفقراء ويعودون بقليل من النقود لبناء بيت من الحجر على قطعة جديدة من أرض قريتهم..

وقد راح يشير إلى فداحة هذه العملية بأن «سعرفدان الأرض الطميية إذا اشتريته لتمتلكه فإنك لاتدفع فيه أكثرمن ستة أوسبعة آلاف جنيه أما إذا اشتراه صاحب مصنع طوب ليجرف المتر الأعلى منه فقط، فإنه يشترى ذلك المترالعلوى بعشرين وأحيانا بخمسة وعشرين ألف جنيه ويترك لك فدان الأرض لتمتلكه ماشئت..»

وقد راح يوسف إدريس يربط بين ظاهرة (التجريف) وبين التقارير التى تأتى من الداخل أو الخارج تشير إلى خطورة هذه الظاهرة ، بحالة (التولة) التى نحيا فيها جميعا .

مالطة خربت

ويحدديوسف إدريس عدة شروط أومطالب للحيلولة دون تحويل أرضنا إلى أرض بور ، فيقول ضمن مايقول :

- أطالب بإعلان الأحكام العرفية الزراعية الأرضية ..
- أطالب أن نهب جميعا لنحمى خصوبتنا وحياتنا

-أطالب بأن يعتبر العدوان على أرضنا بالضبط كالعدوان المسلح على بلادنا وأن تصل عقوبته إلى السجن المؤبد وعلى الفور وبمحاكمات سريعة...

- أطالب وعلى الفور بمصادرة أكوام الطمى المكومة بجوار مصانع الطوب ودفع تعويضات مناسبة عنها فهى مهماكانت ستكون أرخص من استصلاح فدان صحراء وشراء مسمدات صناعية .

-أطالب بإغلاق جميع مصانع الطوب الطميى فى مصر فورا ورصد ملايين الجنيهات لإقامة مصانع عاجلة للطوب الطملى والرملى والأسمنتى..

ثم يصيح يوسف إدريس صيحة عالية :

(ياسارقى الطمى ومجرفى الأرض وحارقى أرضنا لتكسبوا مالاحراما هو طعامنا وطعام أبنائنا .. أفيقوا فإن جريمتكم لو تبينتموها لاقشعرت أبدانكم هولاً .. ثم يعقب ذلك كله بسؤال استنكارى يحمل الألم كما يحمل الخراب والهول، ويجعله ختاما لمقالته هذه ، يقول

هل أنا أؤذن فى مالطة ؟!

أم أن مالطة خربت فعلا ولاحول ولاقوة إلا بالله ؟!

التطور الاقتصادى

لم تعد القضية عند يوسف إدريس كما كان الأمرعند كتابنا الأوائل بإدراك التطور الاقتصادى الذى يحدث فى أوروبا سواء فى الصناعة اوالتجارة أوسبل المواصلات .. وما إلى ذلك من صنوف التطور التكنولوجى الذى يتطور به الغرب كثيرا ،وإنما أصبحت القضية إدراك التدهور الاقتصادى الذى تعيش فيه الأمة العربية اليوم.

وبعد أن كنا نتحدث عن النظم الاقتصادية الغربية أصبحنا الآن نتحدث عن طريقة لتلافى التخلف الذى نحيا فيه إزاء ظاهرة مثل (الانفتاح) ، فبعد أن يعرض لتطور الحياة الاقتصادية فى ظل حياة ديموقراطية كاملة يقول :

(نحن جعلنا من الانفتاح رأسمالية بدون قواعد اللعبةالرأسمالية

الكاملة ، واذا سمينا الأشياء بأسمائها ، فإن قمة الرأسمالية فى العالم هوالنظام الامريكى ، والنظام الأمريكى ليس هو مانراه فى حلقات دالاس أو قصص الكاوبويز إن النظام الامريكى قائم على مبدأ حريةالمنافسة التجارية والصناعية والزراعية ..) (مقالة : لماذا لاننتج؟).

وهو ما يعنى أن أية ظاهرة غربية أخذناها لم نستطع أن نعيد استزراعها فى الأرض بعد تهيئتها لها ، فأصبح عدم الجدية والاضطراب أهم سماتنا الآن ،وأصبح الحكم لا يتم بالإرادة الشعبية وإنما برغبة الحكم وحسب ، وهى رغبة ، يؤيدها السلاح ، وتساندها-إذ أرادت -القوى العظمى ..

لقد غلب الموقف السياسى على الموقف الاقتصادى وضرورة الإصلاح إلى درجة أن يوسف إدريس يصف هذه الحكومات العربية بأنها (حكومات عرائس يحركها هذا اللاعب أو ذاك)..وهوما وصل منه إلى الموقف الحقيقى لنا ..

وهذا الموقف ينحت له إدريس مصطلحا هاما يستخدمه لأول مرة .

فكر الفقر

لقد استخدم مصطلح (فكر الفقر) لأننا لانملك غيرالثروة التى تنتجها لنا الطبيعة (البترول مثلا) عوضا عنا ، فأصبح مقياس الغنى هنا هو خلق المال بالجهد والعرق وليس استثماره بغير جهد مثمر ، ومن هنا ، فإنه راح يفسر الأزمة الاقتصادية التى نعيش فيها على هذا النحو :

(نحن فقراء فكريا لأننا لاننتج ونحن لاننتج لاننا حقيقة فقراء فكريا وليس لأن هناك أزمة اقتصادية أو تضخما .. و.. إن أى شعب مهما بلغ من الغنى والثراء يكف عن التفكير لابد أن يؤوب إلى فقر سريع مدقع)..

على هذا النحو ،فإن إدريس عاد من حيث بدأ ،الفكر أولا ،والفكر هو

الإنتاج، والإنتاج (فى ظل العدل الاجتماعى) لابد وأن يصحبه وعى بالتطور الاقتصادى الذى نحياه ، والذى هو ، بالتبعية ، مرتبط بالفكر الذى لابد أن نتخذه لأنفسنا :

إما رأسمالية كاملة منتجة

وإما اشتراكية كاملة منتجة أيضا

المهم ألا(نرقص على الحبل)-على حد قوله

من لهجة (الرقص على الحبل)إلى لهجة أخرى عن الحزب الحاكم الذى (لايفكر يفصل يوسف إدريس أكثر قضية اضطراب التطور الاقتصادى الذى نحياه جميعا ويتخذ مثالا على ذلك من قضية (السجائر)التى تخسر .

صناعة السجائر

إن إدريس يندهش أن تخسر صناعة السجائر فى وقت المفروض فيه العكس ، فهى بالضرورة أربح وأضمن صناعة تقوم بها الدولة .

وبعد أن يعرض لأسباب محتملة لهذه الخسارة ، يقول فى ثورة عاتية:

(لوكنت من المدعى العام الاشتراكى لأقمت محاكمة عاجلة لكل وزراء الصناعة خلال السنوات العشر الماضية ولكل المسئولين عن صناعة السجائر للإهمال فى إضاعة إيرادات الدولة و..).

ولأنه كان مدركا أكثر من غيره أن مثل هذه المحاكمة لن تعقد (فكل مسئول سيتنصل) فإنه يتحدث طويلا عن تقاعس الأجهزة الكثيرة فى الدولة من مجلس الشعب إلى الصحافة إلى الحزب الحاكم الذى (لايفكر) لأنه حزب أغلبية «وما دام ضامنا أغلبيته فهو ضامن استمرارحكمه، ومادام ضامنا استمرار حكمه فماذا يهمه من مناقشة إهدار مصادر تمويل الدولة مادام يفوز كلما أراد الفوز فى الانتخابات وبصوت الأغلبية الساحقة على كل مايريد ، من قوانين).

وبعد أن يتحدث عن مخرج مشبوه لخسارة صناعة السجائر (بتصنيع سيجارة جديدة تحمل اسم سيناء ، يتساءل عن دور عشرات الأنواع من المباحث والبوليس والرقابة الإنتاجية والسياسية والحزب الحاكم والحكومة والمجالس القومية المتخصصة والموقر مجلس الشعب والموقر مجلس الشورى).

ومن هنا، فقد خرج من التعريف البسيط لقضية فكر الفقر إلى قضية أخرى، هى قضية سوءالنية وسوء التقدير ،وهو يصيح فى مقالته التى منحها عنوان (المعجزة المقلوبة)، قائلا :

(يا إلهى . .

ماذا حدث حتى جعلوا مصر التى كانت غنية وأمنية فى فم أبنائها ، عقوبة توقع ، وبالذات على من يؤثرون البقاءفيها ، عقوبة محكوم عليهم بها أن لايفيقوا أبدا من الأزمات وطوابير الأزمات .) .

لحوم فاسدة

وطيلة النصف الأول من الثمانينات يظل يوسف إدريس يتحدث عن الظواهر الاقتصادية السلبية ،ويعزوها جميعا إلى العنوان الذى اختاره لعدد كبير من مقالاته فى (المفكرة) فى تلك الفترة ، وهو (فقرالفكر وفكر الفقر) ،ثم يضمنها فى كتاب يصدر بنفس العنوان (دار المستقبل العربى ١٩٨٥)..

فالقضية ليست هى الظروف السيئة أو الطبيعة البخيلة ،وإنما هى العكس ، هى التفكير الاقتصادى السيئ الذى نمارسه ونحرص عليه .

الفكر - الفكر

وعلى ذلك، فإن الفقر عند يوسف إدريس لايأخذ هذا المعنى الدارج العام،إنما يتحدد أساسا ليس وضعا اقتصاديا فقط. إنه وضع من أوضاع البشر .

«وضع عام ، يتصرف فيه الإنسان بفقر. ويفكر بفقر . أفكار تؤدى إلى فقر أكثر واحتياج للغير أكثر ،بمعنى آخر هو مرض يصيب الاقتصاد ويصيب العقول ويصيب الخيال أيضا . وهو لذلك يستبدل بكلمة فقر كلمة اخرى ،هى (فقر الفكر) ،وتصبح كلمة (الأزمة) التى نستخدمها لكل شىء هى معادلا موضوعيا لكلمة (فقر) .

وتصبح الأزمة – بهذا المعيار – ليست أزمة الفقر عند الأشخاص ، وإنما تمتد لتشمل (الدعاة) و(الاقتصاديين) والرسميين فى كل الأجهزة .

ومن هذا المنطلق ،منطلق فكرالفقر ،راح يناقش عديدا من المسائل الاقتصادية طيلة الثمانينات تحت أسماء معينة ..

من هو صاحب مصر ؟

لقد راح يناقش قضيةالعلاقة بين المسئولين والقرار (إننا نريد من يحل لنا مشكلة مصر أويجد الحل) ،مشير إلى أن كلا منا – من أصحاب القرار – لم يعد يقوم باتخاذ القرار والمجئ بالحل ،ففى مقالته (ماالحل؟) (مفكرة ١٦ يناير٨٩) راح يسأل :

(فلنفرض مثلا أننا نريد أن نحل مشكلة مديونيتنا لصندوق النقد الدولى وأن هذا الصندوق يفرض علينا شروطا متعسفة وأن هذه الشروط المتعسفة فى حاجة إلى قرار لابد أن يوافق أحد عليه فمن هو الجرئ الكبير الذى يملك إصدار هذا القرار ؟) .

ويضرب مثلا لعدم أهلية أصحاب القرار فى تحديد السعر الرسمى للدولار والسعر المعدل ، فقد كان ينادى عددكبير من الاقتصاديين من زمن بتعديل سعر الجنيه حسب السعر الحقيقى للدولار ، ومع فرض أن الحل ذلك ، فإن أحدا لم يتقدم لهذا الحل أبدا ،والمرة الوحيدة الذى تم فيها ذلك، – كما فعلت وزارة عاطف صدقى – فقدكان ذلك بناء على شجاعة كانت مستمدة كما يكتب يوسف إدريس من«شدة ضغط صندوق النقد علينا وليس نتيجة لدراسة علمية دقيقة لأوضاعنا » وعلى ذلك ، فإن

يوسف إدريس يحدد المشكلة ،ويشير إليها فى وضوح جامح عنيف،فالمشكلة المصرية الآن لا تجدمن يتصدى لها بإتخاذ القرار، إنطلاقا من «أن كلا منا يفضل ويؤثر السلامة بعيدا عن تبعة مسئوليته » .

ويظل صاحب اتخاذ القرارالشجاع هوالمسئول الواعى الوحيد فى مصر، وفى غيابه ، يمكن أن نتحدث عن غياب (صاحب مصر) ..

وقريب من ذلك يحدد موضوعه فى موضوع المفكرة التالى تحت عنوان (من يملك مصر)٢٢يناير، حيث يتحدث عن أصحاب البلد الحقيقيين الذين - وهم غير أولئك ممن لايتخذون القرار - غادروها وتركوها إلى خارج مصر (للنصابين والغشاشين والأفندية الباقين)..

وفى جرأة نادرة يظل يكررهذه الدعوة بشكل لاينقصه جرأة يوسف إدريس وثورته المتكررة، وهو، وإن غير الموضوع فيما بعد، فإنه لايغير هذه الطبيعة المتمردة الحادة كما نرى فى قضية مثل استصلاح الأرض .

يا دكتور يوسف

وقد تعرض فى هذه الفترة لقضية تعدمن أهم القضايا الاقتصادية والسياسية على الإطلاق ، لامسا نبض الجماهير .ومن ثم ،حاول أن يكون أمينا، لينعكس - على مرآته - هذا النبض بشكل صادق، إذ خصص أكثرمن (مفكرة) لقضية «الاستقلال القمحى أو الخبزى » الذى لم نعد نعرفه الآن، وقدكان من أكثر مفكراته عنفا، هذه المفكرة التى نشرت فى ١٢يونيو ١٩٨٩بعنوان (يادكتور يوسف والى) .

فى هذه المفكرة راح يتحدث عن حملاته حول قضية القمح، مندهشا من أن ما تحدث عنه فى هذا الصدد وجد استجابة عالية من جميع أبناء الشعب الذين راحوا يعبرون عن نقص محصول القمح مندهشين من استمرار اعتمادنا على غيرنا من الدول الكبرى (فى لقمة عيشنا) فى حين تظل مساحة الأرض غير المستزرعة فى مصر تصل إلى ٩٦٪ من مساحة

مصر، كـما راح يتحدث عـن هذه المعوقات الـتى تواجه من يـريد إصلاح الأراضى الـزراعيـة من أبنـاء الشعـب ولكـن وزارة الزراعة (تـقف لـهم بالمرصاد)، ويشارك فى هذه المعوقات وزير المالية الذى (أصدر قرارا بمنع استيراد توربينات الحفر) ..

ولم تكن اندهاشة يوسف إدريس تعود إلى الحركة الإيجابية من أبناء الشعب ، لكنها – تحديـدا – من وزير الزراعة – د. يوسف والى – الذى لـم يهتم بإرسال رد وتوضيح لأهم مشاكل مصر الاقتصادية ..

ولهجة المفكرة هـذا اليوم عنيفة لايستطيع أن يقوم بـها غير كاتب حاد الطبع ثائر التـعبير مثل يوسف إدريس ،فضلا عن توجيـهها لوزير الزراعة بضمير المـنادى (يا) بما يحمل غضـبا جارفا لمن يترك الحبـل على الغارب للأقدارالتى تعبث بمصر

سياسة الإلهاء

على أن غضب يوسف إدريس يصل إلـى أقصاه فى مفكرة (٢٢يونيو ١٩٨٩) حين تعانى مصر من مشكلات كـبرى مثل مشكلة – على حد قوله – إنـنا ((نشحت)) ومـع ذلك ، فلا تحدث حركـة إيجابية فـى مصر لمواجهة هذه المشكلات الحيوية .

وهذه الحركـة المفقودة يـمكن أن تحدث لـوتضافرت الـنوايا وخلـصت فنـجد حلا ولكـن « ما يحـدث هو أننا نـترك المشاكـل الصغـيرة تتكـاثر وتتكاثر حتى تبتلعنا فى جوفهـا الحوتى الهائل وفجأة نجد أنفسنا عاجزين ليس فقط أمام المشكلة وإنماحتى عن التفكير فى حلها ».

على أن الوعـى الإدريسى يلحظ فـى هذه الفترة، أنه فـي حين يعرض لأهم مشاكل مصر قـاطبة (خبزنا بالسلف والدين وتـراكم فوائد الديون ، أومشكلة الزيادة الـسكانية الرهيبة .. إلخ)،وفى حيـن لايقدم استجواب واحد لوزير الـزراعة –المسئول – فى الجهات الـنيابية ، وفى حيـن لايهتم

الوزير بالرد المباشر .. فى هذه الفترة يحدث شىء يطلق عليه سياسة (الإلهاء) .

إنه فى حين يعرض إدريس لمثل هذه المشاكل الخطيرة تطلع علينا الصحف بخبر مزعج عن حادثة علقة تعرضت لها الفنانة شيريهان (تفاصيل التفاصيل وكيف وقعت وهل هى مدبرة أم من صنع القدر وموقف زوجة المليونير من الموضوع ..) إلى آخر هذ ه التفصيلات المملة الملهية ،فضلا عن أشياء أخرى كثيرة لاتستهدف غير الهاء الناس عن أهم قضايانا وأخطرها (القمح أوالصحراء أوالاستعمار الزراعى .. الخ ..) .

ومن هنا ، فإن إدريس يلاحظ أن (الكوما)التى وقع فيها المصريون حينئذ ، ليست من غفلة الجماهير،إنما هى من صناعة الحزب الوطنى ،فإن ترويج مثل هذه الحوادث ،وأحوال «طبقة النوادى أصحاب النفوذ وأصحاب النميمة وبائعى العروض والمخدرات« لاتأتى بالمصادفة قط ، وهنا ، لانستطيع إغراء نقل فقرة من (مفكرة) يوسف إدريس فى هذا اليوم - ٢٦يونيو ١٩٨٩ - يقول بسخرية وألم :

(..ثم انتظر من وزير الزراعة وسكرتير عام الحزب الوطنى أن يرد بكلمة أوبخطاب أوبتوضيح ولاحياة لمن تنادى وكأنى أنادى من إذاعات «الأعداء الموجهة» التى لم يعد لها بعد الصلح العربى أثر وأنه لاضرورة مطلقا للرد على هذه الترهات قمح إيه ؟وتعمير صحراء إيه ؟وزراعة إيه؟ والبلد فيها زراعة للركب مثل غلاء المعيشة وقلة الأجورومترو الأنفاق وتلويث مياه النيل وكأنه ليس بالزراعة وحدها نستطيع أن نحل كل المشاكل بمافيها مشاكل غلاء المعيشة وقلة الأجور وتحسين المواصلات وتعيين الخريجين وحتى منع أسئلة الثانوية العامة الصعبة).

ماهو الجنون ؟

وبعد أن يعرض يوسف إدريس لأحد الخطابات الغاضبةالتى جاءته والتى تعبرعما يجب أن يكون فيه الواقع المسروق ،يعود فى نهاية هذه (المفكرة) ليتحدث عن قلة حيلته ككاتب ، فالكاتب لايملك غيرأن

يكتب فقط ،أما أن يكون جهة تحقيق أو تنفيذ فإن الأمر يختلف كثيرا، وراح يحدد الجنون بهذه العبارة :

(لاأستطيع أن أنبه وأحذر طول الوقت فهذا يصبح الجنون بعينه ..).

وفى قمة غضبه راح يعلن أنه لن يكتب مرة أخرى فى هذا الموضوع – لئلا يصاب بالجنون –وكى يتخلص من هذا الموقف الصعب فسوف يقوم بأجازة «حتى لا أروح ضحية قوم لايرون ولايسمعون ولايهمهم أن يروا أو يسمعوا أو يعملوا أو يفكروا»

انحلت المشكلة

ومع ذلك ، فإن الغضب والسخرية يصلان إلى أقصى درجة فى نهاية هذا المقال ، فهو يتحدث أنه فى قمة هذه المشكلة يقرأخبر حل مشكلة القمح وهو خبر يقول إنه تقرر أن نقيم (عيدا) للقمح تنتخب فيه ملكة جمال القمح على توزيع موسيقى جديد لأغنية (القمح الليلة الليلة عيد).

(أترون هذا حلا للمشكلة ؟)يسأله قراؤه ،ثم يجيب فى السطور الأخيرة:

(-كيف لم أفطن لهذا الحل من قبل . وكنت قد وفرت على نفسى وعليكم مشقة القراءة والكتابة واختناق الروح . نعم ..أخيرا جدا انحلت مشكلة القمح وياله من حل عظيم) .

ورغم هذه النهاية الدرامية العنيفة الساخرة شأن يوسف إدريس ،ورغم أنه عاهد قراءه فى قمة غضبه أنه لن يعود لموضوع القمح أو استزراع الأرض بعدأن اقيم له عيد،فإن رصد (مفكرته) طيلة العام الأخير من الثمانينات ترينا أنه عاد إليه مرة أخرى وأخرى ، فراح يتحدث عن تقاعسنا ، ودور البنك الدولى وفشل السياسة الداخلية، بل راح يقدم الحل فى مفكرته التى نشرت تحت عنوان (زرع فى مصر) فى ٢٤يوليو ١٩٨٩ .

على أن الجديد من هذه المفكرة أنه بعد أن تعرض كثيرا لعديد من المعوقات ، راح يتقدم بالحل إلى رئيس الجمهورية ،ففى نهاية مقالته حادث الرئيس بأن المشكلة بين يديه الآن فليس غزو الصحراء يغضب الدول ذات العلاقات الخاصة بنا :

(وحتى لوأغضبهم ، فليغضبوا هم لنأكل نحن ، نأكل من عرقنا وليس من مديونيتنا).

ولانعتقد أن هناك أديبا أوكاتبا فى الحقبة الأخيرة امتلك كل هذا الصبر فى معالجة المسألة الاقتصادية، فصل قضاياها ،وعرض لعديد من الحلول لها - خلال القراء والمتخصصين وخلال قلمه - ،كما لانعتقد أن هناك أديبا أو كاتبا فى الحقبة الأخيرة استطاع أن يوجه هذه الرسائل إلى وزير الزراعة ثم إلى رئيس الجمهورية غير يوسف إدريس .

أحمد بهاء الدين

تحقيق القومية العـربية يرتبط بمقدمات
الدولة العصرية؛ هذه هى المسألة

تعود فكرة هذه الدراسة إلى خريف ١٩٩٤ كنت على وشك الانتهاء من بحث ضخم عن احمد بهاءالدين(*) والحصول منه على نتائج . وكنت قداكتشفت وقتها أن لدى عددا هائلا من المقالات والكتابات السياسية له.

ولما كنت قد انتهيت من البحث السابق مستخدما مناهج شتى فقد خطر لى أن اعود إلى هذه النتائج بمنهج مغاير.

وبذلك آثرت استخدام منهج تحليل المضمون .

كان يعنى هذا، على مستوى المهنة، الإفادة من أدوات استخدام تحليل المضمون(**)، وكان يعنى هذا على مستوى الفكر إعادة وضع النتائج التى سبق أن توصلت إليها، تحت مخبار جديد، لاختبارها، وعمل فى الوقت نفسه - مقارنة مفيدة فى هذا الاتجاه .

وبهذا الشكل، حاولت الوصول إلى بعض النتائج من (البيانات) التى يقدمها النص، وتحديد علاقات الترابط فيه للوصول إلى المعانى الكلية (للخطاب البهائى) إذا جاز لنا استحدام ذلك المصطلح

تركزت الفروض الأولية هنا على محورين اثنين يمثلان معا مشروع (القومية العربية)بمفهومها العصرى عند أحمد بهاء الدين ، وهما :

=القومية العربية

=الدولة العصرية

الأول لتأكيد الهوية القومية ، والآخر لتأكيد الهوية المعرفية

الأول لتأكيد الذات فى عصر جديد ، والآخر لرسم أسباب الحفاظ على هذه الذات ، فى زمن لم يعد ليهتم فيه إلابتفتيت القوميات وزرع

الشقاق ، وتـأكيد خرافة «نهاية الـتاريخ» فى نظام أحادى جـديد، كان قد أحس به أحمد بهاء الدين مبكرا وحاول التعبير عنه

لنهبط أكثر إلى الخطوات الإجرائية ...

(١)

القومية العربية

الفرضُ الأولُ هـنا يشُيرُ إلـى أن أحمد بهاء الديـن كان أحد المثقـفين القوميـين، الذين انفقـوا سنوات حياتهم مـن أجلِ تأكيد هذا الإنـتماء وله إسهاماتُ مؤكدة ، خاصةً إبانْ فترات المد القومي النضالى في الخمسينيات، إذ كان يرى ويكتبُ فى هذا الوقت ليؤكدَ على أن القومية تملكُ الكثيرَ من الروابطِ التى تشيرُ إلى المصيرِ العربيِ المشترك.

كذلـك، كان دائمَ الربـط طيلةَ الـستينـات بين معـنى القومـية العربـية وضرورة الاسـتقلال وشروطَ المـثقف التـقدمى، وَربَـط ذلك كلهً بـالتنمـية والحرص على القيمِ الديموقراطية، والتنبه إلى الخطر الخارجي بَيْدَ إنه بدءا من السبعـينيات كان قد وَصَلَ إلى قمـة النضجِ القومي حيـن تهيأت - فى الجانبِ الآخر - عواملُ الانـكسارِ للمد القوميِ خاصـةً مع زيارةِ السادات للقدس وسلسلة التحالفات العربية - العربية التى توالت.

ونستطيعُ أن نتمـهل عند عوامل القوميةالعربيةَ فـى نموذجيِ التحليلِ الآتييـن (١،٢) لنرى إلى أى مدى مـثلتِ هذه الـعواملُ مؤثرات هـامةً فى فكر أحمد بهاء الدين

إن أهمَ الـعوامل التـى استحوذت عـلى مفـهومِ القومـية لديه ، عـاملُ الإقليم المتـصل، والذى لا يتصلُ بغيـره بشكل مباشر وإن كان لا يـنفصلُ عنه، فهذا العاملُ حصلَ على أعلى نسبة تكرارً (٥) بنسبة مئوية تصل إلى ٣٨,٤٦٪ كما حَصَلَ عـاملُ التاريخِ علَى (٣) تكـرارات بنسبةً (٢٣٪) تتوالى بعدها بقيةُ العوامل بنسبِ متساويةكاللغة والتراثِ والأرضِ والتراث

والعقيدة لتصل في كل منها وحدة الفكرة إلى (١) بنسبة ٧٧٪. وهو ما يستوجب التوقف أكثر عند عدة استنتاجات :

(١) يلاحظ أن المعنى المتطور للقومية يصل إلى أقصاه عند أحمد بهاء الدين إذ أنه رغم وجود عامل العرق و الجنس فى أدبيات تطور القومية، فإن التطور الحديث، النابع من فهم التطور القومى العربى بوجه خاص (ساطع الحصرى مثالاً) لا يرى أن العرق يمكن أن يدخل كعامل مؤثرقط فى الفهم القومى ، إذ أن اللغة والتاريخ كانا أكثر ما يميز رواد الفكر القومى العربى وفى مقدمتهم الآن بهاء الدين .

مراجعة أدبيات الفكر القومى عندنا تؤكد ذلك ولاتنكره ..

(٢)يسود عامل (الاقليم المتصل) نسبة كبيرة من العينة ، وهومايعود إلى قناعة خاصة لدى الكاتب من أن اعتزاز أى قطر عربى بقطريته لاينافى - قط - مع انتمائه العربى راح يردد ذلك فى زياراته الكثيرة للأقطار العربية ، خاصة، فى حقبة السبعينيات حين فرضت ظروف كثيرة على مصر أن تنفصل - ظاهرياً - عن محيطها العربى إثر اتفاقية كامب ديفيد فى النصف الثانى من هذا العقد ،فعروبة مصر لم تكن لتمثل أى موضوع للبحث أو أى محل للتساؤل وليس الجدل- كما كان يردد - بين مصر العربية وبين مصر غير العربية ، ولكنه حول حدود (الدور)المصرى الجديد فى هذه الفترة .

وعلى ذلك ، فإن قضية (الإقليمية) لديه لم تسيطر على قضية العروبة ، فعروبة مصر لم تعد فى محل التساؤل (وقس على ذلك عروبة العراق وسوريا .. الخ) حين يهتم القطر العربى بالحدود السياسية خاصة فى فترات الازمات الكبرى فى تاريخنا .

(٣) ويرتبطُ بذلك الفئةُ التالية - التاريخ- إذ أن من أهم أُسس الوحدة العربية لديه كان وحدة التاريخ ، ذلك لأن «تاريخنَا المشتركَ الضاربَ فى القدم قد جعل بين هذه الشعوب العربية وشائج وروابط تجيءُ ظروفُ العصرِ الحديث لتوقظها وتدعَمَها لالتضعفهَا ».

وقد كان واعياً بذلك إلى أن مايُسْهِمُ فى ذلك هذه الطفرةُ الحضارية المعاصرة حيث زال الاستعمارُوجاءت ثورةُ الاتصالاتِ والمعلوماتية وبتحديات العصرِ الحديث التى تَفْرض - ارتباطاً بتاريخنا - التكاملَ والاتحاد .

ولان أحمد بهاء الدين كان مغرماً بالتاريخِ الحديث ،فقد كان دائم ضربِ الأمثلة به لتأكيدِ قيمة هذا التاريخ فى التقارب ، وأثره فى استراتيجيةِ كل إقليمٍ على حدة، وهو يتمهل فى ذلك عند هذه القضيةِ البدهية حين يقول إنه إما أن هناك مصراً قويةً ، فهى آمنةٌ وعلى علاقات منينةِ مع المشرق .. وأما أن هناك مصراً ضعيفةً ، فهى مقطوعةُ الصلةِ مع هذه المنطقة ..

إلى غير ذلك ممايبرِهنُ منه على أهميةِ التاريخِ -إيجابيا- فى هذا الصدد .

(٤)ربما لايَقل أهميةً عند بهاء الدين عاملُ اللغة عن عاملِ التاريخ، فهو لايذكُر مايَسميه عناصرَالقومية الواحدة كوحدة التاريخ وتشابهِ التكوينِ النفسيِ والمصلحة المشتركة إلا ويذكُرَ معها اللَغة . .

إن اللغةَ المشتركةَ هى أهمُ عاملِ فى التراث المشتَرك - كما يردد -بل إن لها أثراً فادحاً فى خلق نوعِ الانتماءِ لدى الَفرد. حتَى لوتعارض ذلك مع الجغرافية تعارضاً عنيفاً .

إنه يـذكرُ بلاداً كـثيرةً أقـامت الوحـدةَ فيمـا بينـها رغـم أن خـلافات الجغرافيا كـانت ظاهرةً وحادةً ،متسائـلا (فما بالنا إذا كانت الجـغرافيا في حالة العرب تُضيفُ إلى عناصرِ القوةِ اللغة ..)

٥) واللافتُ للنظرِ هنا أن تكرارَ العقيدة عنده يكاد يأتى مرةً واحدةً فى عقد السبعينات، بيد أَن مراجعةَ (مشروعه) الفكرى قبلَ ذلك وبعدَه يؤكدُ أنه يَفْهمُ العقيدةَ بشكلٍ متقدمٍ جدا ، وهو الشكلُ الذى تردد، وإن يكن قليلاً، فى أدبيات القوميةِ فى تطورها الحديث.

إذ إنه لايترددُ فى القول أن الإسلامَ له من الأهـمية بحيثُ يفوقُ عاملَ العروبة فى حد ذاته، غير أَن الإسلامَ هنا ينصرف إلى ذلك التراث القوى الطويلَ ، إذ أن هذا التراث - على قوله «هـو تراثهُ الذى يُفكّر به ويكتُبُ بلغته ويتأثُر بالكثيرِ من عاداته».

وهذا الفـهُم ينطـوى على باعثِ تـوحيدٍ لاتفـريق ، نابعٍ مـن الوعيِ القوميِ المرهفِ لصاحبه .

وهو مـايتـضحُ أكثـر حين يَـذكُر فـى ذلك التـراثَ المشـتركَ والارضَ الواحدةَ والمصلحةَالاقتصادية ،وما إلى ذلك ، مما يتنبه معه إلى أهمية هذا التراث الضخم الذى لايتوقفُ عند الإسلام كعقيدة وحسب وإنما إلى كونه مشروعاً حضاريًا رحـبًا يمكن أن يكونَ - فى حالَةَ فَهمـه - عامل توحيد وتكامل .

٦) وهذا كلهُ يَصلُ بـنا إلى أن تكرارَالفكرة سواء فى تكويـنها لعواملَ أَو عناصرَلاتَلبـثُ أن تمضى ، فى السياقِ الأخيرِ إلى فـكرةٍ واحدَة، تتكرر فيها بعضُ الفئات أكثَر من غيرها .

(يلاحظ أن الـعوامل الثلاثةَ الأولـى: الإقليم والتـاريخ واللغة تسـتحوذُ

على ضعف التكرارات الباقية) غيرأننا لانستطيعُ أن نتعاملَ مع عاملٍ دون عاملٍ آخر فَتقدمُ منه ونَتخذُه معياراً جوهرياً في التحليل .

واستحواذ التكرار الأول على (٥) فئات تشير - فقط -الى أزمة (عروبة مصر التى أُثيرت فيَ السبعينات لظروف طارئة ، وزالت بزوال الأزمة خاصة أن مفكرا مثل أحمد بهاء الدين كان يتعاملُ مع تجربةِ الوحدةِ العربية بخبرة تاريخيةِ طويلة.

كان قد شهد التجارب الوحدوية فى الخمسينات وشهد انتكاساتها أو انبعاثَ بعضها بشكل مؤقت فى الستينات ، بدءاً من تجربة الوحدَة بين مصر وسوريا فى ٥٨ أو سقوطها فى بداية الستينات وما أَعقبه من تجَاربِ الوحدة الثلاثية - مصر وسوريا والعراق - ٦٣، والخطواتُ التى اتخذتَ فى عاَم ٦٤ للوَحدة بين مصر والعراق ، بل ومشروعِ الوحدةِ الليبية المصريةِ فى بدايةِ السبعينات قبل حربِ ١٩٧٣.

وعلى ذلك ، فإن عَدَّ التكرارات أو ترجمتها لايحول دون فهمِ الوعى القومِى فى إطارِه العام عند أحمد بهاءالدين .

وبهذا التصور ، لانستطيعُ الاقترابَ أكثرَ من هذا الوعيِ القومى دون التمهلِ عند عوامل الدولة العصريةِ أو رموزِها فى هذا التحليل وهو مايَصلُ بنا إلى المحورِ التالىَ .

الجدول رقم (١)

	الصفحة				القومية العربية							
تاريخ / فئة	ا	ـد	س	م	اللغة	التاريخ	التراث	الأرض	الاقتصاد	العقيدة	الإقليم	ملاحظات
٧١/٤/٣			/	١		+					+	اعتماد عدد واحد
٧٢/٨/٤	/			٢							+	مَرْجِعُه إلى اكتمالِ
٧٥/١١/٩	/			٣		+					+	الرؤية السياسية للباحث
٧٨/٤/٢	/			٤								هذا وهذا يرتبُط إلى حدِ
٧٨/٥/٧	/.			٥		+	+	+	+	+	+	بعيد بفكرة القومية
٧٨/٧/٢٢		/		٦							+	المصريةِ التى طُرحتْ
												بشكلٍ سياسيٍ لاتفاقيِ
												إبّانَ اتفاقيةِ كامب ديفيد
الجملة					١	٣	١	١	١	١	٥	

الجدول رقم (٢)

الفئة	تكرار	نسبة مئوية
١- الإقليم	٥	٣٨,٤٦٪
٢- التاريخ	٣	٢٣,١٪
٣- اللغة	١	٧,٧٪
٤- التراث	١	٧,٧٪
٥- الأرض	١	٧,٧٪
٦- الاقتصاد	١	٧,٧٪
٧- العقيدة	١	٧,٧٪

(٢)

الدولة العصرية

كان أحمد بهاءالدين أكثر من غيره من القوميين تنبها إلى أن تحقيق القومية العربية الآن يختلف عنه فيما مضى ، فإلى جانب أنه كان يشهد تحولات فى موازين القوى العالمية من انتهاء الأيديولوجية وانحسار أثر الحرب الباردة ، فإن الثورة العلمية شهدت طفرات عالية .

ومن هنا أصبحت (الدولة العصرية) من أهم مداخل المثقف القومى إلى قومية عربية تحيا فى نهايات القرن العشرين ، هذه الدولة بكل ما فيها من دعوة للعقل وحرية الرأى وصور الاجتهاد والشورى ...وما الى ذلك .

لقد كان ثمة علاقة أكيدة نامية الآن بين تطور القومية وشروط قيامها،خاصة أنه كان واعيًا إلى أن مراجعة التجربة الأوربية كانت تشير إلى أن صعود التشكيل القومى هناك ارتبط بتطوير العقل على حساب الكنيسة والقوى التقليدية ،ورغم أن الخلاف كان قائماً بين طبيعة التجربتين : الإسلامية والغربية ، فقدكان القاسم المشترك بينهما هو التطلع العقلى والقومى اللذان يسيران فى خط واحد ليصوغا فى نهاية الأمر صورة (الدولة القومية العصرية) .

وهوما يفسر أن التطلع للنضج القومى كان يرتبط بالقطع بالتطلع لأفكار العصر ، بل إن رصد كتابات بهاء الدين منذ فترة مبكرة يؤكد وعيه بذلك ،فقد تحدث فى منتصف الستينات عن (الفجوة الحضارية) بيننا وبين العدو اليهودى - الغربى

وكان أول من تحدث ولم تمض أسابيع على هزيمة ٦٧ عن (الدولة العصرية) ووصل إلى قمة الوعى بالقطيعة المعرفية بيننا وبين الغرب فى الثمانينات .

وتحليل بيانات الجدول رقم (٣) يرينا عناصر (المشروع الحضارى) لديه ، وهى عناصر وإن يمكن فهمها فى إطار هذا المشروع فهى لم تخرج عن قضايا العقل والحرية، وهى الفئات التى تمثل الفئات الرئيسية فى هذا التحليل :

الجدول رقم (٣)

	الصحيفة			الدولة العصرية								
تاريخ / فئة	هـ	خ	ص	مسلسل	صحوة	المرأة	الشورى	الاجتهاد	التراث	العمل	ع الرأي	خرافة
٨٢/٢/٣١				١	+							+
٨٢/٤/١				٢	+							+
٨٢/٨/٢				٣								+
٨٢/٨/٣				٤			+		+	+		+
٨٢/٨/٩				٥	+					+		
٨٢/٨/١٠				٦	+					+		
٨٢/٨/١١				٧	+			+		+		
٨٢/٨/١١				٨					+	+		
(١)٨٥/٦/٨				٩								
(٢)/٦/٩				١٠								
٦/١٠				١١								
٦/١١				١٢								
(٦)				١٣	+		+					
(٧)				١٤								
(٨)				١٥				+				
(٩)				١٦				+				
(١٠)				١٧				+				
(١١)				١٨				+				
(١٢)				١٩	+			+				
(١٣)				٢٠				+				
(١٤)				٢١								
(١٥)				٢٢								
(١٦)٧/١٢												
(١٧) ٧/٢١				٢٣		+						
٥/٢٩				٢٤		+						
٦/٢٢				٢٥		+						
٧/١٤				٢٦		+						
(١)١٩٨٧/٦/١٠				٢٧								
(٢) ٦/١١				٢٨							+	

٦/١٢ (٣)			٢٩							+	
٦/١٣ (٤)			٣٠							+	
٦/١٤ (٥)			٣١							+	
٦/١٥ (٦)			٣٢							+	
٦/١٦ (٧)			٣٣					+			
٦/١٧ (٨)			٣٤					+			
٦/١٨ (٩)			٣٥					+			
٦/١٩ (١٠)			٣٦					+			
٦/٢٠ (١١)			٣٧			+					
٦/٢١ (١٢)			٣٨							+	
٦/٢٢ (١٣)			٣٩							+	+
٦/٢٣ (١٤)			٤٠							+	+
٦/٢٤			٤١			+					
١٩٨٨/١٢/١٨			٤٢		+	+					
١٢/٢٥ (١)			٤٣		+	+					
١٢/٢٦ (٢)			٤٤		+	+					
١٢/٢٧ (٣)			٤٥								
١٩٨٩/٢/٤			٤٦								
١٩٨٩/٢/٥										+	

وبتحليل هذه التكرارات إلى نسب مئوية كما نرى فى الجدول (٤) يصل بنا إلى عدة استنتاجات هامة:

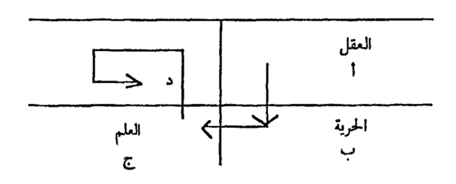
* رقم يوميات الكاتب بجريدة الاهرام كما عمد إلى تسجيلها.

جدول رقم (٤)

الفئة	التكرار	نسبة مئوية
- الفجوة الحضارية	٧	١٢,٣
- المرأة	٨	١٤,٣
- الشورى	٢	٣,٤
- الاجتهاد	١٢	٢٣,١
- التراث	٤	٧,٢
- العقل	٧	١٢,٤
- حرية الرأى	١٠	١٧,٨
- الخرافة	٦	١,٧٢

والبيانات توضح لنا أن عامل الاجتهاد أكثر مما حصل على عدد تكرارات وصل إلى ١٢ بنسبة ٢٣,١، وتتوالى التكرارات التى لا تخرج جميعها - كما أسلفنا - عن عناصر العقل والحرية فى الدولة العربية العصرية التى يريدها : فنحن أمام تكرارات حرية الرأى ١٠ (١٧,٨) ثم قضية المرأة بواقع ٨ بما يصل إلى نسبة ١٤,٣ ، يلى ذلك الدولة الحضارية والتراث ونفى الخرافة والعقل، الشورى فى تكرارات متقاربة أو متفاوتة .

ونستطيع أن نستعيد كل العناصر فى مصفوفة تمثل العنصر (د) فيها الخانة الذى يلتقى فيه وعيه الحضارى .



وهو مايصل بنا إلى تفسيرات متوالية :

١- تستطيع أن تمضى قضايا العقل فى خط رأسى مع رموزها (الاجتهاد، الشورى ، المرأة) حتى إذا ما جاوزت الخانة (أ) إلى الخانة (ب) تكون قد وصلت إلى قضايا الحرية (حرية الرأى كمثال) ، ويمضى الخط الأفقى إلى الخانة(ج) ليتمهل عند شروط الدولة العصرية د، وهى الخانة التى يتبلور عندها المشروع العربى العصرى .

فى هذا السياق نصل إلى استنتاج آخر

٢- إن قيمة العقل أكثر مايحرص عليه أحمد بهاء الدين ، فرغم أن النسبة لاتزيد على ٤ ,١٢٪ من الفئات ، فإنه يلاحظ أنها تلقى بظلها على أغلب الفئات الأخرى إذ يمكن بإضافة فئة الاجتهاد ١ ,٢٣ إليها نكون قد وصلنا إلى مايقرب من ثلث النسبة المئوية العامة إذ ينطوى تحت ذلك كثير من القضايا التى تمتد إلى التاريخ الإسلامى وتعود إلينا كما هى بحجة قدسيتها .

ويلاحظ فى هذا السياق أن أحمد بهاء الدين لم يكن يقاطع التراث الإسلامى بل كان يؤمن أن للعقل الإسلامى مساحات شاسعة واقتداراً فى فهم العديد من المعانى القائمة فى النص (المقدس) فى (اجتهاد) الإنسان العربى المعاصر ، وقد كان أكثر ما يلاحظ فى هذا الخصوص تركيزه على مايسمى بقضية (المصالح المرسلة) ، أى المصالح التى لم تعتمد بنص فى القرآن مما يمكن معه استخدام العقل، والاجتهاد المتنور فى التعامل معها، فهذه النظرية التى وجدت من أيام الرسول -صلى الله

عليه وسلم- تتفوقُ الآن على نظريات القانون الوضعى وهوما يقومُ معه على الاجتهاد وإستخدام العقلِ(الغوص) بحثًا عن المعانى الكامنة فى النصوص وهى تعطى للعقلِ حقَّه .

٣-ومَا يُقالُ عن العقلِ فى الاجتهاد يُقالُ فى عديد من القضايا التى تَزيدُ من رصيد العقل وأهميته مثل قضية الشورى (الديموقراطية) التى تجد لها لديه نسبَة مئوية تصلَ إلى ٤ ,٣٪ وقضية تحررالمرأة ٣ ,١٤ بكل مافيها من قضايا طبيعية وفقهية فمنذ فترة مبكرة - فى الستينات - كان رفض مقولات مشايخ الإسلام المبرزين مثل الشيخ (أبو زهرة) حول المرأة (أخبار اليوم ١٩/ ٨/ ١٩٦١)، بل تحدى العقاد على صلابته فى مواجهة خصومه وعنفه فى مثل هذا المجال (انظر كتابه : مبادئ وأشخاص)، ثم استأنفَ فى منتصف الثمانينات هذا التحدى وإن بدا أسلوبهُ هادئاً أكثر فتعرض لقانون الأحوال الشخصية ، وأبدى تأييدهَ له صراحة ، ثم عرَض لأكثر من يومية لنصيب (البنات فى الميراث) أثناء تعرضه لضريبة التركات، وكانَ من الطبيعى أن يعرج فى قضية الاجتهاد إلى التراث الإسلامى فأبدى وعيا كبيرا فى ضرورة استلهامه وليس نقله ، بل إعادة النظر إليه فى مخبار العقل ، وفى حضورِ النصوص المتفق عليها (حصل التراث على نسبة ٢ ,٧٪) .

٤ -وتفرع عن ذلك قضيةُ(الحرية) عنده إذكانت تمثل المصفوفة الثانية مباشرة الأولى هى العقل)، ويلاحظُ أن حريَة العقلِ والرأى لديه حصلت على نسبة ٨ ,١٧.

والواقع أن حريةَ الرأى كانت تستحوذُ لديه على اهتمام خاص من قناعة مؤداها أن الحوار المتواصلِ أكثر ما يقرب -إذا توفر له حسن النية - إلى الاقتناع بوجه الحق . ونجدُ هذا لديه فى كثير من كتاباته ، ففى حقبة الثمانينات ارتفعت نبرة الاقناع بالحوار إلى مَصاف القيَم الإنسانَية الكبرى . نجد هذا فى التكرارات التى تشير إلى أسلوبه فى التعامل مع قضية الإرهاب مع بعض المتطرفين أو بعض الإسلاميينَ المعتدلين ، أو فى مواجهة تكفير أصحاب الفكر (العلمانى) أو فى قضيةِ إعادة النظر

إلى التاريخ الإسلامى والتعامل بحذر مع بعض مرويات التراث الذى قد يحسب على الإسلام .. وما إلى ذلك .

٥- لانستطيع التوقف عندالعلم دون الإشارة إلى مشروعه فى (الفجوة الحضارية) ونقص المعلوماتية فى العصر الحديث ، إذ أولى هذه الفئة عناية قصوى خاصة فى الفترة الأخيرة من حياته . لقد بذل جهداً كبيراً لتأكيد أن الفجوة الحضارية (نسبة ١٢,٣) وبقاء الخرافة(١,٧) أكثر ما يعوق بناء الدولة العصرية العربية .

كان يؤكد أن القيم التى تقوم على العلم (لاالخرافة) هى التى أنتجت المجتمع المتقدم، وهذا المجتمع هو مايجب البحث عنه، والسعى إليه لنعيش فى عصرنا ، بل كان يرى أن (العصرية) لم تكن لتتعارض مع القيم والعادات الاجتماعية الموجودة فى المجتمع ،وبذلك ، فقد كانت الدولة العصرية بمعناها العلمى لديه قضية أمن قومى وليست قضية بقاء فقط.

وبدهى أن ذلك كله لم يكن فى الهواء .بمعنى أن تاكيد قيمة العقل والدعوة إلى العلم ونبذ الخرافة وحرية الرأى .. وما إلى ذلك كأن يكون (المشروع السياسى)الذى يلقى فى تيار الحضارة العربية التى يجب أن تبعث فى هذا العصر..

ويلاحظ كذلك أن القضية الديمقراطية -على سبيل المثال -ارتبطت بقضية القومية العربية ، بل كان مما يعوق الوحدة العربية عدم فهم الشورى أوالسعى إليها كما يجب ،ومن هنا ، تولدت قناعة ذاتية لديه مؤداها أنه لايمكن أن توجد حالة تنمية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية دون تحقيق الوحدة، وفى حالة تحقيق الوحدة العربية يمكن صيانتها بتأكيد قيم الديمقراطية وحرية الحوار.. وما إلى ذلك. فالديمقراطية إذا تحققت يمكنها أن تسهم فى بناء القومية العربية، أما إذا سبقتها الوحدة العربية فلابد أن تنجب اهم رموزها السياسية.

وبهذا يتأكد لنا أن مشروع أحمد بهاء الدين الذى تم تفكيكه الآن يؤكد - فى حالة تركيبه- على أن تحقيق القومية العربية يرتبط ارتباطاً

أكيدا بمقدمات (الدولة العصرية)، وهى المقدمات التى تتحددُ فى العملِ لبناء عصر التنوير بناءً صحيحاً وإيجابياً .

وقد يكون من المفيد أن نُشيرَ هنا إلى أن بهاءالدين لم يغفل البناءَ الاقتصاديَ فى (مشروعه)، إنما كان يرى، منذ فترة مبكرة، أنه لايمكن أن يقومَ هذا البناء فى غيبة تقاليدَ عصرية واعية ،فتطورُ أيه قضية علمية مرتبط ارتباطاً كبيراً بالتنمية الاقتصادية .

وبذلك، فإن البناءَ الاقتصاديَ يَظلُ مرهوناً بالوعيِ الفكريِ والسياسى الذى يُمكنُ أن يُمَهد له ويُسهِمَ لإقامته.

---

* دراسة بعنوان (أحمد بهاء الدين / سيرة قوية)

** استفدت من منهج تحليل المضمون : أدواته وليست فلسفته العامة ، وهو مايعود إلى صياغاتى الخاصة لعدد من أدوات المناهج الأخرى ومحاولة الإفادة منها مع غيرها (انظر المنهج الخاص فى كتابى : البنية الشعرية عند فاروق شوشة، هيئة الكتاب ١٩٩٢)وقدكانت العينة التى استفدت بها هنا كما هائلاً من المقالات والكتابات واليوميات لأحمد بهاءالدين، (عشوائيا) مما يؤكد فروضى ويبرهن عليها ، ولم تبعد المادة عن فترتى السبعينات والثمانينات ..

كذلك من وحدات تحليل المضمون اخترت (وحدة الفكرة) كوحدة تحليل ولم أعتمد إلى شواهد أو مجتزءات كثيرة مؤثرا إرفاق أهم المقالات التى اعتمدت عليها هنا على شكل (ملاحق) فى الجزء الآخر فى الكتاب .

محمد حسنين هيكل
أخطاء الأستاذ

المثقفون.. «سقطت من حولهم جدران الحمام- كما يقال فى التعبير الشائع»
(هيكل ج٢ المفاوضات)

الأستاذ يحتاج إلى التأمل

هذا ما كنت أردده دائما وأنا أقرأ كتابات الأستاذ محمد حسنين هيكل وكتبه..

وقبلها حين كنت أقرأ منذ فترات مبكرة فى الخمسينات والستينات مقالاته التى كانت تنشر بشكل دورى.

ودائما كنت أحس بالحيرة أمام مايكتب الأستاذ الذى يتمتع بذاكرة قوية تعززها كتاباته (أثناء الحدث) أو (الوثائق) التى حرص عليها طيلة عصر عبد الناصر وبعد رحيله بكثير. ويزيد هذا الرأى حين نعرف أن الأستاذ، اختلف عن غيره، فى السنوات الأخيرة، أنه كان أكثر وعيا من سواه بالثورة المعلوماتية بالعالم، فضلا عن اتصالاته بالمصادر الخارجية التى نعرفها ولا نعرفها، أضف إلى هذا أسلوبه الذى يحاول أن يشحن فيه قبسا كثيفا من الشعرية والعاطفية الدالة. ومن ثم، فقد تمتع، أكثر من غيره بهذا الحس الدرامى العالى الذى لا يمكن لكاتب- فضلا عن مؤرخ- بدرجة من التعبير قلما يستطيع أن يتغافل عنها أحد من المتابعين لتاريخ مصر فى العصر الحديث.

ورغم أن الأستاذ استطاع أن يلقى بالأضواء على الدور السلبى لكثير من المثقفين المصريين فى السنوات الأخيرة (انظر على سبيل المثال كتابه: بين الصحافة والسياسة)، ورغم أنه لم يتوقف طيلة عمله الصحفى أو بعد أن غادر الصحافة من أن يصف نفسه (بالجورنالجى)، أو أنه قارئ للتاريخ لا كاتب له .

ورغم هذه المداراة

أو هذا الوعى الذى يمارس به عمله الكتابى

رغم هذا كله، فإن هيكل نفسه وقع فى عديد من الأخطاء لا نعتقد أن أحدا غيره- أى غير الأستاذ هيكل- يستطيع أن يكشفها فضلا عن تفسيرها أو تبريرها فى الإطار العام.

ومن هنا، فإن أكثر التعبيرات التى يمكن أن يتصف بها هيكل هو التعبير نفسه الذى حاول أن يصف به المثقفين إبان تألقه فى الفترة الناصرية، ففى إحدى كتاباته راح يفتح قوسا، ليقول عن المثقفين هذه العبارة (-سقطت من حولهم جدران الحمام..)

ومن هنا، فإن التعبير الذى يمكن أن نقوله عن هيكل نفسه- وليعذرنى الأستاذ- إنه فى السنوات القادمة سوف تسقط جدران الحمام حول هيكل نفسه.

فما كتبه عن الآخرين أو عن نفسه، كتبه من وجهة النظر (الهيكيلية) وما أتى به من وثائق، كانت هى الوثائق التى اختارتها العقلية (الهيكلية) وما قاله هو ما أراد بالضبط أن يقوله (بصراحة) هيكل التى أراد أن يقنعنا بها عبر سنوات طويلة تصل إلى نصف قرن أو يتيف.

ومن هنا، فإن التوقف عند هيكل يعد من المخاطر التى لم يعد لها صاحبها العدة والتوقف عند هيكل فى فترة كان فيها (قطبا) كبيرا ذا وجود وفاعلية يعد- أيضا- من المخاطر التى لا يستطيع أن يتحمل مسئوليتها أحد فالرجل مازال يعيش بيننا.

والرجل يحمل أسرارا كثيرة فى خزائن أجنبية وفى أوراق لا نعرف مكانها الحقيقى والرجل يرتبط بعلاقات غامضة، وفى أحسن الأحوال، مجهولة مع أجهزة وشخصيات وجهات لا نعرف عنها شيئا، ولم يكشف أحد منها- تقريبا- فى التطرق إلى هيكل ودوره شيئا.

ولا يبقى أمامنا، غير التوقف عند كتاب واحد- كمثال- ونحاول من خلاله فهم الوعى الذى يكتب به، درجة الوعى وزمانها.

ونحن على ثقة أنه ستقابلنا أسئلة كثيرة لا إجابة واحدة منها.

ونحن على ثقة أيضا أن هذه الأسئلة من نوع الأسئلة الغامضة..

يزيد الغموض وتتضاعف سحابات الأسئلة مع الوقت أكثر، نستطيع أن نقول إن الأسئلة تحمل، حين نعرض لبعض هذه الإجابات من وجهة نظرنا عددا من الأخطاء التى لا يستطيع هيكل نفسه أن يبررها لنفسه..

لنعد إلى الكتاب

ولنتمهل عند عنوانه

ولنذكر- قارئنا الكريم- أن هذه محاولة، مجرد محاولة- من أحد أبناء جيل عبد الناصر، الجيل الذى عرف الحقبة الناصرية، وما لحق بها من أحداث السبعينات وانكساراتها، من هنا، فإن ما نحاول أن نقوله هو اجتهاد لا يحمل موقفا خاصة من الأستاذ بل على العكس- كان يمكن أن يحمل موقفا إيجابيا منه، ومن كتاباته، ومن مواقفه، كما أراد أن يدفع بها إلينا عبر هذه الكتابات.

ولنذكر- قارئنا الكريم- أننا لا نبحث عن أخطاء الأستاذ أو نحاول الصيد (فى ماء عكر) والدليل على هذا أننا حاولنا أن نقرأ كتابه الأخير (حتى كتابة هذه السطور) وفى أذهاننا ما تشير إليه القراءة فى المعنى العام فالقراءة هنا ليست بحثا عن أخطاء

إنما هى بحث عن الفهم العام فى محيط واسع مترام يعكسه الواقع المصرى فى نصف قرن الأخير.

إن لدينا الأسئلة

ولدينا الأخطاء

ولدينا الفهم، محاولة الفهم

وعبر الأسئلة والأخطاء والفهم ستكون هذه المحاولة من الكتابة عن

الأستاذ وهـى إن اتخذت عنوان (أخطـاء الأستاذ) فلأن أخطـاء الأستاذ لا يجب أن تكون كبيرة لأنه أستاذ.

ويجـب أن نسارع بالـقول هنا، وعـلى العـكس من هذا، لأن الأسـتاذ شخصيـة كبيرة، غير عادية، فـان أخطاءه، فى حالة الوقـوع لابد أن تكون كبيرة ويجب أن نسارع، مرة أخري لنعود إلى الكتاب واضعين فى الاعتبار أن العود إلى الكتاب لا يمنح مرجعية واحدة هى الكتاب نفسه، فقد عرفت هيكـل- كما آشرت- عبـر كتاباتـه الكثيرة، والـتقيت بكـل كتاباتـه منذ منتصف القرن، ومن هنا، فإن العود للكتاب وحده سيكون هو ديدنا، وإنما العود إلى كتابات الأستاذ دائما سيكون فى اللاوعى، فى حين أن الكتاب، هذا الكـتاب، سيكون هـو- وحده- فى الأماميـة للدراما التـى يحاول أن يكتبها الأستاذ.

فلنتوقف عند الكتاب مؤقتا..

الكتاب هو (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل)(*)

وأكثر مـا يواجهنـا أن هذا الكتـاب يقع فى عـدد من الأخطاء- كـما سنرى- جـئنا نحن الـقارئين- بعد ذلـك- لنضيـف بعد قراءته هـالة من التصديق.

(١)

لنبدأ القصة كما أراد أن يقولها لنا الأستاذ

جاء هذا فـى معرض تفسيره لانشغال مصر مـع بداية القرن العـشرين بقضاياها الخـاصة. فى حين كانت المؤمرات الغربية تحـاك على أشدها ضد فلسطين.

إنه يعـيد ذلك هنا إلى كـون الحركة الوطنيـة اعتمدت بشكـل أساسى

(*) صدرت الأجزاء الثلاثة من هذا الكتاب عام ١٩٩٧ عن دار الشروق.

على ملاك الأراضى والزراعة عادة تعطى أصحابها شعورا بحدود المكان يركزون جهدهم عليه ولا يخرجون منه (منتهيا إلى التفسير لملاحظة «سعد زغلول» الشهيرة حين جاء «عبد الرحمن عزام» ينبهه إلى أهمية «البلاد العربية» وكان رد سعد زغلول هو قوله:

صفر زائد صفر يساوى كم يا عزام؟»)

والواقع أن هذه ليست المرة الأولى يردد الأستاذ هيكل هذا الرأى (سبق أن ردده أكثر من مرة آخرها بمجلة المصور ١٣ مارس ١٩٩٥)، لكن الخطير أن يردده أستاذ مثل هيكل حتى لتصدق، فتتحول المقولة المريبة إلى حقيقة تعامل شأن الحقائق، فتقلل من دور مصر، وتنال من شأن زعمائها..

والواقع أن مراجعة صحف هذا القرن- والأربعينات بوجه خاص- فقد كانت أشدها نشاطا للحركة الصهيونية- سنجد هذا الكلام يردد لأول مصر من يهودى كان معروفا باسم ليون كاسترو وكان ممثل الوكالة اليهودية فى مصر فى ذلك الوقت ومحرر جريدة «الليبرتى»، وقد راح هذا اليهودى فى بداية نوفمبر من عام ١٩٤٨- والصراع العربى الإسرائيلى على أشده- يردد هذه الإشاعات كيلا يلتئم شمل العرب ضد إسرائيل الذى كان قد مضى على ولادتها المعلنة- ١٥ مايو- عدة أشهر ومراجعة الصحف اليهودية أو المصرية صبيحة يوم ٤ نوفمبر سنجد تصريح هذا الصهيونى أثناء إلقاء محاضرة له فى « نادى الصحفيين اليهود» بتل أبيب يزعم فيها أن سعد زغلول كان يقول دائما (نحن لسنا عربا، وإن الوحدة العربية هى صفر مع صفر فالمجموع صفر).

ولأن سعد زغلول كان قد رحل فى نهاية العشرينات، فقد كان من الطبيعى أن يضيف ممثل الوكالة اليهودية فى القاهرة أن سعدا كان قد وضع خطة سياسية يبتعد فيها نهائيا عما يحدث شرق مصر، وتنفصل فيها مصر- بشكل نهائى عن العرب- غير أن مصطفى النحاس- يتخلى عنها ولا يلتزم بها.

خاصة أن النحاس فى هذا الوقت- كما تشير وثائق الأستاذ هيكل

نفسه- كان أكثر المتشددين ضد اليهود فى فلسطين رافضا المساومة بأى شكل على عرب القدس..

والغريب أن هذه أول مرة نسمع فيها مثل هذا الكلام ابان احتدام الصراع على فلسطين:

بدء القوات الإسرائيلية حركتها المستمرة لاقتلاع السكان الأصليين من أراضيهم وبدأت قوات جيش الدفاع ترتكب المذابح وجماعات شتيرن تدمر كل شيء وقوة الأراجون تحاول اكتساح النقب والفالوجا حيث كان عبد الناصر لا يزال صامدا أمام عنف القوات الإسرائيلية التى يقف العالم كله- وفى مقدمته أمريكا- وراءها- بالعتاد والمال والصلف المقيت.

وقد شهدت صحف مصرية كثيرة كالبلاغ والسياسة- فى ٤ نوفمبر ١٩٩٨- ردودا عنيفة ضد كل مايقول ليون كاسترو، وشارك فى هذا الهجوم رينيه قطاوى فى مصر، وبعض أعيان الطائفة الإسرائيلية فى مصر.

وفى نفس الصحف وصحف أخرى نستطيع أن نعود لنقرأ تصريحات للحاخام الأكبر واليهود المصريين تنفى هذا الكلام المريب، والذى يقال فى ظرف غير موات قط لمثل ما يقال، وتحت هذه التصريحات قرأنا توقيعات من (رفائيل سقال رئيس جمعية الشبان اليهود المصريين، فيتا سستينو المحامى وعضو مجلس الطائفة الإسرائيلية، دكتور ألفريد بلوز مؤسس جمعية الشباب اليهود المصريين وعضو لجنة الطائفة.. إلخ).

وقد يقول قائل إن هذا الاستنكار لكلام ينال من وجدان الشعب المصرى والحس الشعبى كان لازما من اليهود المصريين، وخاصة، أنه كان لأغلبهم مصالح فى مصر. غير أن ذلك لايؤكد الكلام الذى نسب إلى سعد أو الموقف الذى يحسب للنحاس، وإنما يؤكد على أن ما قيل ليس هو الحقيقة، وإنما يظل جزءا من الأكاذيب التى حيكت ضدنا والتى تحاول أن تنال من موقف الشعب المصرى من الفكرة العربية..

وهو كلام إن كنا لا نستطيع إن نقول أن هيكل يقول به بسوء نية، فإنه يصبح أخطر بكثير حين يجئ من هيكل بوجه خاص.

ولهذا، فإن ملاحظات الأستاذ وأن بدت بدهية، فإنها يجب ألا تمر هكذا دون تأمل حين يحاول أن يكتب كتابا عنوانه الثانى، «حين يسافر التاريخ إلى المستقبل» فما يحتاجه الأستاذ كلما أخرج كتابا ليس الثناء، وهو ثناء وصل إلى حد الغلو فى المديح المستمر، وفى نشر الكتاب نفسه مسلسلا فى أكثر من صحيفة، وفى نشر إعلانات كثيرة كثيرة عنه.. إلخ. إن هذا كله كفيل بأن يوقع به فى أخطاء أخري كثيرة وهى أخطاء سنرى بعضا منها كثيرا..

(٢)

مازلنا مع كتاب الأستاذ (المفاوضات السرية..) وهو كتاب يقول عنه صاحبه من البداية إنه:

« قراءة للتاريخ وليس لكتابته»

ولأن كل قراءةٌ تكون محملة بدلالات كثيرة، بعضها إيجابى وبعضها سلبى، فإن الجانب السلبى لقراءة أستاذ كبير كهيكل تظل بحجم الأستاذ الكبير- إن لم تكن لتزيد- عن القراءة الإيجابية.

ويجب الإسراع بالقول هنا، إنه- حتى- فى حالة القراءة السلبية، فنحن فى حالة تفاعل مع الكاتب، وهو تفاعل، قصده المؤلف نفسه، ومن ثم، فإن الإستجابة له تظل من نوع الهدف الذى أراده، مما يتحول معه إلى قراءة تأخذ فى اعتبارها أن الرأى والرأى الآخر هما حصيلة الرأى الثالث الذى يؤكد، فى الغالب، صحة ما يريده الكاتب..

هذه مقدمة اضطررنا إليها، نصل، بسرعة، إلى ما بعدها

فى اللوحة الأولى من القسم الأول وتحت عنوان (نابليون) ينشر الأستاذ هيكل وثيقة نابليون- بعد دخوله إلى مصر وذهابه إلى المشرق- موجهة إلى اليهود.

الوثيقة طويلة لا تخلو من معان مريبة يجب التمهل عندها، بما جاء فيها:

« من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعية .

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذى لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه وجوده القومى، وإن كانت قد سلبته أرض أجداده فقط

«إن مراقبى مصادر الشعوب الواعين المحايدين- وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويونيل- قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل فى اللغة العبرية تعنى أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

«انهضوا بقوة أيها المشردون فى التيه. إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التى ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم... لابد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة. وإن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلى عن حقكم، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

«إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به، ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها.

«يا ورثة فلسطين الشرعيين..

«إن الأمة الفرنسية التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفاً لإسبرطة وروما، وأن معاملة العبيد التى طالت ألفى سنة لم تفلح فى قتل هذه الشجاعة.

«سارعوا! إن هذه هى اللحظة المناسبة- التى قد لا تتكرر لآلاف السنين- للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة إلهكم يهواه، طبقاً لعقيدتكم، وافعلوا ذلك فى العلن وافعلوا إلى الأبد.

بونابرت (ص ص ٣١-٣٢).

وفى نهاية هذه الوثيقة التى تحمل مكرا استعماريا مبكرا، وبعد أن يشير بسرعة إلى البيان الذى كتبه نابليون للمصريين فى أول مجيئه للبلاد، يتمهل عند بيانه إلى اليهود

يقول إن..

- (ورقة «نابليون» اليهودية هى الوثيقة التي تستحق الاهتمام فى السياق التاريخى لأنها الأثر الاستراتيجى الباقى فى المنطقة من تلك الأيام وحتى نهاية القرن العشرين..)

ولا يلبث هيكل بعد التقليل من البيان المصرى أن يقول إن الورقة اليهودية هى (رؤية.. رؤية إمبراطور يملك حسا استراتيجيا)

وينتهى كلام الأستاذ.

ويظل ما يثيره قائما وصريحا

بل يظل ماقاله عاديا وبدهيا..

وفى جميع الأحيان، نستطيع مراجعة مايقول بطريقتين

أولا: ففى رأيى أن الورقة- المصرية أو اليهودية أو غيرهما فى البلاد الذى نزل فيها الغازى الفرنسى- لاتعدو أن تكون أكذوبة، فلم يتعد الأمر بالنسبة لنابليون الخديعة للسيطرة على الشرق لتحقيق بقية أحلام عبقرى العسكرية الفرنسية ضد أعتى امبراطورية معاصرة لها الإمبراطورية البريطانية.

إن الأمر- بالنسبة- لنابليون لايعدو أن يكون طموحا عسكريا صهيونيا أو كذبا على الإمبراطور فى سابق الأيام، ومن أجل هذا، استخدم اليهودكل الأوراق و الأكاذيب والعقائد وكل هموم البشر لتحقيق طموحه..

إنه نفس الطموح الذى نجده عند معاصر وخصم آخر له- بالمرستون رئيس وزراءبريطانيا- يحكى الأستاذ هذه العبارة عن اللورد «شافتسرى» (صديق اللورد روتشيلد المليونير اليهودى) إن شافتسر يقول عن حديثه مع بالمرستون:

- (تحدثت إليه عن آلام اليهود فلم يسمعنى، وحدثته عن مصالح بريطانيا فترك كأس البراندى الذى كان فى يده ولمعت عيناه وبدأ يسمعنى)

وماذكره أيضا عن الزعيم الصهيونى سولوكوف فى مذكراته قريب من هذا، ينتمى بتعبير هيكل نفسه (إلى عالم الحقائق والمصالح)

إنها- بوضوح شديد وجارح-(المصلحة) ولا شيء آخر..

نحن الآن فى قرن الإمبريالية، لقد ترك الغرب العالم الجديد واتجه للعالم القديم ليعيد بناء إمبراطوريته أو يحكم من استحكاماته العسكرية فيها إنه الغرب الإمبريالى فى جميع الحالات سواء أكان قائدا فرنسيا أو مسئولا إنجليزيا، أو قبطانا برتغاليا.

لم يتعد الأمر فى جميع الحالات الرغبة فى سيطرة الغرب، برؤية استعمارية لا نبؤة ولا تعاطف.. أو أى شيء آخر.

ولهذا لانستطيع القول أبدا إن نابليون كان أول من سعى للاعتراف (بمشروع دولة يهودية)، لماذا؟

ومافعله بالمرستون فيما بعد لليهود من إنشاء شبكة المستعمرات الاستيطانية لتكون عازلا تحجز مصر عن سوريا وتمنع لقاءهما لم يكن استجابه لروتشيلد، لماذا؟

إنه الغرب فى جميع الحالات، الغرب العنصرى، الآتى إلى القرن التاسع عشر، والمخترق كل الشرق، كل الأقطار العربية والإسلامية لبناء إمبراطورياته على أطلال الوعود الكاذبة سواء للشريف حسين أو الاتفاقات السرية لسايكس وبيكو أو إحكام القبضة.

حتى تتحول المستعمرات إلى دولة والهاجاناه إلى جيش دفاع والإرهاب إلى مشروعية والأسطورة إلى إمبراطورية ودولة يهودية.

إن ماحاول أن ينبه إليه الأستاذ كاد يوقعنا فيه.

إن ((الآخر)) كان واعيا دائما، أما نحن، فلم نتعلم أبدا أن دورة التاريخ تنتهى دائما- لمن يعمل لها- إلى شروطه، وهى دورة انتهت بتاريخ يعيد نفسه.

ولذلك، فمحكوم علينا أن نعيش نفس التاريخ مرة أخرى، وربما مرات..

ثانيا: هذا كله يمكن أن نقوله، ونفسر خلاله هذه الوثيقة.

غير إننا نستطيع أن نلقى هذا كله وراء ظهورنا، ونجيب بشكل آخر، أكثر جدية وأكثر وعيا وإن كان أكثر كشفا لبعض أخطاء الأستاذ.

نعم، أخطاء الأستاذ

الأستاذ يحاول أن يقنعنا أن هذا البيان أو المشروع اليهودى هو منسوب لنابليون، وأنه لعب دورا كبيرا فى قرن القوميات (القرن ١٨) وما سيترتب

علـيه فى هـذا القرن. وهـذا الطرح موجـود كثيـرا فى اللـغات الحيـة، بل والأكثر من هذا موجود فـى كتاب صدر بالعربية فى سلسـلة عالم المعرفة (١٢/ ١٩٨٥) إبان تحـليل لـروجينـا الشريف لـتاريخ «الـصهيـونية غـير اليهودية»

الأستاذ يحـاول أن يقنعنا بذلك، غـير أن عددا من الكتابـات المعاصرة تكشف العكس أن النص مزور.

هذه هى الحقيقة التى نروع عندها

ومع أن المؤرخ الفرنسى هنرى لورنس كشـف عن الخطة الشيطانية التى بدأت ولـم تنتـه لتقـنع العـالم كله أن نـابليـون كان وراءإحيـاء القومـية اليهودية، أوإحدى الشخصيات الملهمة التى تنبهت للمجد الصهيونى، ومن ثم، ألقت ببذوره المبـكرة فى فلسطين وأمام القدس تحديدا، بـيد أن كاتبنا المصرى بشير السباعى، يكاد يكون هو الوحيد الذى تنبه إلى هذا بالعربية، وراح يكشف أخطاء هيكل.

يلاحظ بشير السـباعى هنا تحويرا فى النص العربـى الذى وجدناه عند هيكل، فإلى جـانب أن هيكل يحذف التاريخ والمكـان المزعومين الواردين فى النص المزور، ويشير بدلا من ذلك- فى تمـهيده لنشر الترجمة- إلى أن البيـان صدر أمام أسوار الـقدس أو خارج أسوار الـقدس، بالرغـم من أن بونابرت لم يقـف أمام تلك الأسوار، بل أمام أسوار عكا التـى لم يتمكن من فتحها، وبالرغم من أن البيان المزور يشير فى سطره الأول إلى إنه صدر فى القدس، التى لم يدخلها بونابرت.

وزيادة فى التمويه تتحدث ترجمـة هيكل- كما لاحظ السباعى - عن اختيار القدس مقرا لقياد الجيش الـفرنسى فى حين أن البيان المزور يتحدث عن جعل القدس مـقرا لهذه القيادة بما يتمشى مـع زعم المزورين أن القدس هى مكان الصدارة.

لا نريد أن نسهب أكثر حول خطأ من أخطاء هيكل، ونكتفى لمن يريد العودة لهذه الأخطاء بشكل موسع أن يعود إلى كتاب هنرى لورنس الذى ترجمه السباعى أخيرا (**).

(**) انظر: بونابرت والإسلام ، بونابرت والدولة اليهودية، هنرى لورنس، ترجمة بشير السباعى، مصر العروبة للنشر والتوزيع ١٩٩٧، خاصة الصفحات ٧٥، ٧٦، ٧٧

(يستطرد بشير السباعى فى تذييله، فيضيف إلى الفقرة الأولى فقرات تالية:

وثانياً، يزور هيكل ترجمة فقرة تتحدث عن الحرب التى تخوضها فرنسا ضد أعدائها الذين يريدون تقسيم أراضيها «بجرة قلم من مجالس وزراء»، هى مجالس وزراء الائتلاف الثانى الذى تشكل ضد فرنسا فى أوائل عام ١٧٩٩ من إنجلترا وتركيا وبروسيا وروسيا والنمسا، فتتحول إلى فقرة تتحدث عن حرب يتعين على الإسرائيليين خوضها، ولذا يحذف هيكل جملة «بجرة قلم من مجالس وزراء» حتى لا ينكشف تزويره للترجمة.

وثالثاً، بالرغم من أن هيكل لا يشير إلى مصدره الذى نقل عنه البيان، إلاً أنه يحاول فى حاشية ترد أسفل ترجمته للبيان (ص ص ٣٢-٣٣) إيهام القارئ بأن مصدره هو أرشيفات الحملة الفرنسية على مصر حيث يقول:

«كانت هناك باستمرار عملية بحث عن وثائق الحملة الفرنسية على مصر، ولحقب طويلة بدا وكأن هذا الكنز التاريخى قد ضاع واندثر، وكان الظن أنه ربما غرق هذا الكنز عندما كانت الصناديق التى تضم أوراقه محمولة على ظهر مركب فرنسى من المراكب التى تسللت عائدة إلى فرنسا بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر. وساعد على ترجيح هذا الاحتمال أن الأسطول البريطانى، بقيادة «الأميرال» نلسون، كان يترصد السفن الفرنسية المتسللة عائدة إلى مرسيليا محاولة اختراق طوق الحصار البحرى. ولعل الخطأ الذى وقع فيه كثيرون بين الباحثين والدارسين، أنهم اتجهوا إلى الخزائن التى كان طبيعياً أن تودع فيها أوراق الحملة الفرنسية وهى وزارة الخارجية أو وزارة الحربية أو وزارة المستعمرات. ثم خطر ببال أحد الأساتذة المصريين المدققين، وهو الدكتور «أحمد حسين الصاوى» أن يلقى نظرة على محفوظات وزارة البحرية الفرنسية وإذا الكنز معظمه موجود فى خزائنها».

---

(٣)

.. وهذه ورقة أخرى تـفسر حقيقـة توجه نابليـون إلى اليهود (بالـبيان) الذى نشره فور مجيئه إلى مصر.

فلم تـكن من أهداف نابليـون- كما أسلـفنا- الاعتراف بوطـن قومى لليهود أو حثهم للعودة إلى (أرض الميعاد).. وما إلى ذلك، وإنما هى خدعة حاول أن يخفى بها الإمبراطور هدفه الحقـيقى، وهو، تحويلهم إلى (وسيلة) للوصول إلى (غايته).

التحـول إلى (وسيلة) لـلوصول إلى (الغـاية) وهى فى جمـيع الحالات خدعة.

وهذه الخدعة لـم تتوقف عند مجيئه إلى الشرق فقط وإنمـا أيضا حين عاد إلى الغرب.

وهى- كما سنرى- لم ينفرد بها نـابليون وحده، وإنما استفـاد بها إلى أقصـى حد عدد كبير من السياسيـين الآخرين الذيـن حاولوا إقامـة دولة لليهود من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة.

هل نحن فى حاجة لتأكيد هذا كله..

لقد صدر فى نـهاية عام ١٩٩٦ فى مصر كتاب لمتـخصص وطنى واع هو د. عبد الوهاب المسيرى بعنوان (أسرار العقل الصـهيونى، دار الحسام، سبتمبر ١٩٩٦) وراح خلال درس «الإدراك والسلوك والتبعية» وخلال عدة فصول تنـوعت بين التوقف عـند الإدراك الاسرائيلى أو الإدراك الـغربى.. إلى غير ذلك من الأسرار الـتى قد تبدو بدهية، لولا، ما يراد لنـا، بالتمويه عليها، أن تتحول إلى معميات، وتخرج عن إطارها الوظيفى الحقيقى.

وكـان أبرز مـثال لـهذا ماجاء فـى كتـاب مـحمـد حسـنين هـيكـل (المفـاوضات السريـة) حول بيان الـيهود والأمر لـم يتوقف عـند التقـدير الخاطئ أو الغامض لهيكل، وإنما امتد إلى الآخرين..

إن مراجعة الصحف التى صدرت فى الفترة التالية سنجد عددا كبيرا من الكتاب (السياسيين) يستخدمون كلام هيكل وبيانه نفس الاستخدام، ومن ثم فإنهم، يقعون فى (تزييف) التاريخ بحجة كتابته.

وهى الأخطاء التى أصبحت تزادد اليوم فى عالمنا العربى بقصد وبدون قصد وتكون النتيجة الحتمية لذلك كله هو الحال فى (الخطأ) التاريخى الذى يتحول- مع التكرار- إلى واقع غير قابل للنقض قط..

نقول إن أكثر من لاحظ هذا فى الحقبة الأخيرة عندنا د. عبد الوهاب المسيرى فى كتابه الأخير (أسرار العقل الصهيونى)، وهو كتاب فى غاية الأهمية لما يتعمق به صاحبه من وعي ثاقب، وهو- فى الوقت نفسه- تفريعة من مشروعه الضخم حول الموسوعة اليهودية التى يتوفر عليها منذ سنوات بعيدة..

ونتمهل أكثر عند هذه النقطة بوجه خاص..

لقد أطلق على الدولة الوظيفية حين يتم حوسلتها- تعبير وسيلة (أى تحويلها إلى وسيلة)- لصالح الدول الراعية للإمبريالية.

وراح يؤكد على أن هذه الحوسلة الصهيونية فى حالة الحركة الصهيونية لن تتوقف عند هذه الحالة الوظيفية، بل ستمتد لتشمل كل المادة البشرية اليهودية أينما كانت..

والتاريخ يؤكد هذا ويفسره..

والاستطراد يفيد فى التراكم المعرفى ويؤكده..

ففى اجتماع بين هرتزل وفيكتور عمانوئيل الثالث، ملك إيطاليا، أشار الزعيم الصهيونى إلى أن نابليون دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين ليؤسسوا وطنا قوميا، ولكن ملك إيطاليا بين له أن ما كان يريده فى الواقع هو أن يجعل اليهود المشتتين فى جميع أنحاء العالم (عملاء) له.

وقد اضطر هرتزل إلى الموافقة على ما يقول، بل وأن يعترف بأن تشامبرلين، وزير الخارجية البريطانى، كانت لديه أيضا أفكار مماثلة.

وكان هرتزل يفكر بأنه إذا وافقت إنجلترا على مشروعه الصهيونى، فإنها ستحصل «وفى ضربة واحدة» على عشرة ملايين تابع (عميل) سرى فى جميع أنحاء العالم يتسمون بالإخلاص والنشاط، وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه فى خدمة الدول التى تقدم لهم العون، يقول:

- «إن إنجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم فى خدمة جلالتها ونفوذها». على هذا النحو أضاف هرتزل مستخدما الاستعارة التجارية التعاقدية الشائعة فى الأدبيات الصهيونية فثمة أشياء ذات قيمة عالية تكون من نصيب الشخص الذى يحصل عليها فى وقت لم تكن بعد قد عرفت قيمتها الحقيقية.

ولم يتوقف الزعيم الصهيونى عن ترديده أن يتفهم أمله فى أن تدرك إنجلترا مدى القيمة والفائدة التى ستعود عليها من وراء كسبها الشعب اليهودى، أى أن هرتزل مدرك تماما لوظيفة الدولة اليهودية والشعب اليهودى ونفعهم والإفادة منهم وفائدة توظيفهم وحوسلتهم (هكذا).

وتتوالى التفسيرات التاريخية..

إن الخطة الصهيونية الخاصة بتسخير الشعب اليهودى تظل جزءا أساسيا من العقيدة الصهيونية.

ففى عام ١٩٢٠ عبر ماكس نوردو عن تفهمه العميق للدوافع التى حركت رجال السياسة البريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية. فبعد القيام بحساباتهم توصل هؤلاء البريطانيون الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية. فبعد القيام بحساباتهم توصل هؤلاء الساسة إلى أن اليهود يعتبرون فى الحقيقة «مصدر قوة» وبالنص «مصدر نفع» أيضا لبريطانيا وحلفائها.

ومن هذا الإدراك الصهيوني عرضت عليهم فلسطين..

ولا يفوت د. المسيرى فى استعارته- عن الحوسلة- عن القول إن كل الكتاب السابقين ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها رقعة أو « مساحة» أو «مكانا تابعا» أو «بلدا» تحت الوصاية (فهى مكان تم نزع القداسة عنه وحوسلته تماما حتى أصبح موضوعا محضا).

وهم يعتبرون المستوطنين الصهاينة حراسا و «خدمة عسكرية جاهزة»:

إنهم جماعة من المماليك أو المرتزقة على أهبة الاستعداد دائما. والمملوك أداة ووسيلة، وليس إرادة وقيمة.

أما الإدراك الغربى لليهود- كما يفصل أكثر- إنما تنبع فى المقام الأول من أن اليهودى هو عنصر نافع داخل الحضارة الغربية، وسواء أكانت الإشارات للمكان أو كانت للإنسان، فإن جوهر الاستعارات كلها هو التبعية الكاملة للغرب، والتحوسل الكامل لحسابه، وتحويل المكان والإنسان إلى أداة منعزلة عن المحيط الحضارى الشرقى (ذراع مستقبلية).

ونعود إلى هرتزل مؤسس الصهيونية فنجده قد مزج كل العناصر فى استعارته الشهيرة حين قال :

- سنقيم هنا فى آسيا جزءا من حائط لحماية أوروبا يكون عبارة عن حصن منيع للحضارة (الغربية) فى وسط الهمجية.

لقد مزج الإنسان والمكان بحيث أصبحا حائطا غربيا فى مواجهة الشرق.

ويلاحظ المتخصص فى التاريخ اليهودى أن كلمة «إسرائيل» فى العبرية كلمة متعددة المعانى متنوعة الدلالات وتشير للأرض والشعب تماما كما فعل هرتزل.

هذا عن إدراك الغرب لليهود.

فما هو إدراك الإسرائيليين لدورهم (وهو جزء من إدراك العالم الغربى له)

وهو مايجب الإشارة إليه أيضا فى هذا السياق..

إن هذا الإدراك هنايدور فى هذا الإطار.

وكثير من الاستعارات التى يستخدمها المستوطنون الصهاينة فى وصف الدور الموكل إليهم يبين إدراكهم لعملية الحوصلة الوظيفية هذه.

والأمثلة أكثر مما يحتمل الإشارة..

لقد استخدمت جريدة هآرتس استعارة درامية لوصف الدور الذى تم إسناده إلى الدولة اليهودية (انظر سبتمبر ١٩٥١) بعنوان (نحن وعاهرة الموانى) جاء فيه بالحرف الواحد:

- إن اسرائيل قد تم تعيينها لتقوم بدور الحارس الذى يمكن الاعتماد عليه فى معاقبة دولة واحدة أو أكثر من جيرانها العرب الذين قد يتجاوز سلوكهم تجاه الغرب الحدود المسموح بها والاستعارة السابقة (إسرائيل كحارس أجير يشبه العاهرة) تلمس- على مايبدو- وترا حساسا فى الذات الصهيونية الإسرائيلية.

وهو دور نشهد تأكيدا له فى وثائق الخارجية البريطانية لعام ١٩٥٦ الخاصة بحرب السويس أنه أثناء المباحثات السرية التى جرت بين إنجلترا والدولة الصهيونية ومهدت للعدوان الثلاثى على مصر، تم الاتفاق على أن تقوم إسرائيل بمهاجمة مصر. وبعد وصولها إلى قناة السويس، تقوم إنجلترا وفرنسا بالتدخل ثم تصدران أمرا إلى الطرفين المصرى والإسرائيلى بالانسحاب عدة كيلو مترات من حدود القناة، وبذلك يتم تبرير الغزو الفرنسى والإنجليزى أمام الرأى العام باعتباره محايدا تهدف إلى حماية الملاحة فى القناة.

وقد ضمنت الدولتان أمن اسرائيل وزودتاها بالغطاء الجوى المطلوب.

وهى أمور معروفة سلفا ولا تحتاج إلى توثيق.

ومع ذلك فلابد لـلعود إلى الوثائق أكثر لـنتثبت، فنحن هـنا لا نكتب سردا وحكـايات كما يفعـل (الأستاذ) أحيانا، وإنمـا نؤكد التاريخ ونـسعى إليه..

وحتى نعود إلـى الوثائق لابد من الإشارة إلى دور إسـرائيل فى عدوان ١٩٥٦ كما هو معروف فى الإدراك العام..

تشيـر الأحداث العامة إنـه يبدو أن المندوب الإنجلـيزي بالغ قلـيلا فى الأمر وطلـب أن تقوم الـقوات الإنجليزية بإلحاق بعض الإصابـات الطفيفة، ولكن الفـعلية، بالقوات الإسـرائيلية لرفضهـا الانسحاب أو لتباطـؤها فيه حتى يتم حبك المسرحية.

وهنا ثارت ثائرة بن جوريون واستخدم استعارة شبيهة باستعارة هآرتس لوصف العلاقة بين إسرائيل والدول الغربية حين قال:

- إنجلـترا تـشبه الـنبيـل الإقطـاعى الذى يـرغب فى مـعاشـرة إحدى الخادمات جنسيا على أن يتم ذلك فى الخفاء وحسب..

أى فى المطبخ مثلا لا فى حجرة النوم..

ومن المؤكد أن بن جـوريون لم يرفض الدور الاستراتيجـى الموكل إليه (الخادمة الحسناء)، ولكـنه كان يطمع فى أن يتم اللقاء بـين الخادمة والسيد بأسلوب راق يليق بالدولة اليهودية الوظيفية.

هل هـوأسلوب راق حقـا أم أسلوب الخـفاء الذى تـعودت عليـه هذه الخادمة/ العاهرة وهى تقوم بدورها فى الخفاء وبعيدا عن الأعين.

وهو ما يليق بما تقوم به ومن جنس وظيفتها.

ينتهى ما يثيره اشتراك إسرائيل فى العدوان الثلاثي، ونرجئ الوثائق إلى موضع آخر..

** إن ما لا حـظه د. المسيـرى يمكن أن نوافـق عليـه تماما مع إضـافة بدهية، هى، ان أوروبا التاريخية، التى يـتحدث عنها هرتزل امتدت لتصل إلى أمريكا.

إن أمريكا أصبحت اليوم أكثر الدول التى تستفيد من (الصهيونية) وتحولها إلى وسيلة.

(٤)

وهذه وثيقة أخرى تؤكد الإدراك الغربى لدور الصهيونية.

وهو دور لم يخرج- كما أشرنا- عن استخدام الغرب لإسرائيل كوسيلة للوصول إلى غاية وآخر مثال لذلك هو هذه الوثيقة التى نعيش معها هذه الأيام حيث تمر الذكرى الأربعون للعدوان الثلاثى على مصر (١٩٥٦).

وبعيدا عن تكرار ما حدث إبان العدوان الذى اشتركت فيه إسرائيل (كوسيلة) لتبرير هذا العدوان، فإن الدور الإسرائيلى فى هذا العدوان لم يخرج عن هذا الدور.

وهو ما يحتاج إلى تفصيل أكثر..

لقد شهدت إحدى الضواحى الفرنسية (سيفر) قبل العدوان بخمسة أيام- ٢٤ اكتوبر- اجتماعا ثلاثيا: إنجليزيا- فرنسيا كان الطرف الثالث فيه صهيونيا جاءفى نص الوثيقة التى تم الاتفاق عليها:

(تقوم القوات الإسرائيلية، بإيجاد حالة من الصراع المسلح على مشارف قناة السويس، لتستغله بريطانيا وفرنسا كذريعة للتدخل العسكرى ضد مصر، على أن توفر القوات الفرنسية الحماية الجوية والبحرية لإسرائيل، ثم تصدر بريطانيا وفرنسا إنذارا مشتركا لكل من مصر وإسرائيل بوقف القتال بينهما والانسحاب بعيدا عن القناة، وبأن تقبل مصر احتلال منطقة القناة احتلالا مؤقتا بواسطة القوات الأنجلو فرنسية وذلك لحماية الملاحة فيها.. وتقوم القوات البريطانية بتدمير المطارات والطائرات والأهداف العسكرية المصرية وتفرض السيطرة الجوية على سماء مصر، على أن تدافع فرنسا عن موقف إسرائيل فى الأمم المتحدة، وتبذل بريطانيا جهودها

السرية لمساندة إسرائيل دون أن تكشف ذلك علانية حتى لا يضار مركزها فى العالم العربى، وفى النهاية تتعهد فرنسا بإمداد إسرائيل بمفاعل ذرى له القدرة على إنتاج قنابل ذرية)(*)..

(*) نشرت الوثيقة لأول مرة فى صحيفة التايمز البريطانية فى ١٧ أكتوبر ١٩٩٦، وكانت الوثيقة قد نشرت بالنص فى جريدة هآرتس الإسرائيلية فى ١/ ١٠/١٩٩٦، ونرفق هنا هذا النص، كما نرويه عن الجريدة الإسرائيلية ونشر (بمختارات إسرائيلية التى صدرت عن مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بالأهرام عدد نوفمبر ١٩٩٦)

والنص الكامل للوثيقة كما يلى

مجمل نتائج المحادثات التى عقدت فى سيفر خلال أيام٢٢- ٢٤ من شهر أكتوبر ١٩٥٦ بين مندوبى حكومات المملكة المتحدة ودولة إسرائيل وفرنسا

١- ستشن القوات الإسرائيلية فى مساء مابين التاسع والعشرين والثلاثين من شهر أكتوبر ١٩٥٦ هجوما واسع النطاق ضد القوات المصرية بغرض الوصول غداة الهجوم إلى منطقة القناة.

٢- ستتقدم حكومتا بريطانيا وفرنسا على حدة ولكن فى نفس الوقت عند علمهما بهذه الأحداث وخلال الثلاثين من أكتوبر مطلبين إلى حكومتى مصر وإسرائيل، وهذا وفقا للخطوط التالية:

أ- قيام الحكومة المصرية بـ:

«أ» وقف كل أعمال الحرب، «ب» سحب قواتكم لمسافة عشرة أميال «١٦ كم» من القناة «ح» الموافقة مؤقتا على احتلال القوات الأنجلو الفرنسية للنقاط المحورية فى القناة لضمان حرية الحركة فى القناة أمام وسائل ملاحةكل الأمم حتى يتم التوصل إلى تسوية نهائية.

ب- قيام الحكومة الإسرائيلية بـ:

«أ» وقف كل أعمال الحرب. «ب» سحب قواتكم عشرة أميال من شرق القناة وعلاوة على هذا سيتم إبلاغ حكومة إسرائيل بأن حكومتى بريطانيا وفرنسا تطالبان حكومة مصر بالموافقة على قيام القوات الأنجلو فرنسية بالاحتلال المؤقت للنقاط المحورية، وإذا رفضت أية دولة أو إذا لم تبلغ موافقتها فى غضون اثنتى عشرة ساعة فستدخل القوات الأنجلو فرنسية وستتخذ الوسائل المطلوبة لضمان تنفيذ مطالبها. =

تنتهى الوثيقة وتبدأ الإشارات..

لقد استخدمت إنجلترا وفرنسا (إسـرائيل) لتقوم بدور الوسيلة، وسعت إلى تحويل الوسيلة إلى ذريعة.

هذا أمر لم يـعد اليوم فى حاجة إلـى شك، خاصة أن نصيى الـوثيقة- الإنجليزية والـفرنسية- قد أعدما، ولم يـبق لنا إلاهذه الوثيقة الـتى كشفت عنها المصادر الـصهيونية نفسها فـى الفترة الأخيرة وهى الوثيقـة التى تؤكد هذا من الدولة الصهيونية نفسها..

ولأن الاتـفاق الـذى صـدق علـيه بـن جـوريون تـبـلور فـى الإدراك الإسرائيلى، فإن اسرائيل سعت بالعقلية الصهيونية إلى الإفادة منه.

كيف؟!!

لقـد اشترطت إسـرائيل وقـتها حـماية فرنـسا لهـا إما بالسـلاح، وإما بالدفاع عنهـا فى الأمم المتحدة وهو ما تمخض عنه الهـدف النهائى من أن

= ج- يوافق منـدوبو الحكومات الـثلاث على عدم مطالـبة إسرائيل بتـنفيذ المطالـب التي ستعرض عليها فى حالة إذا لم تستجب حكومة مصر للمطالب التى ستعرض عليها.

٣- ستقوم الـقوات الأنجلو فرنسـية بشن عمليـات ضد القوات المصريـة فى ساعات الصبـاح المبكرة مـن الحادى والثلاثين من أكتوبـر فى حالة عـدم استجابـة حكومة مـصر للمطالب المقدمة إليها.

٤- سترسل الحـكومة الإسرائيلـية قواتها لاحتـلال الساحل الغربـى من خليج العـقبة ومجموعة جزر الملاحة فى خليج العقبة.

٥- تتعـهد إسرائيل بـعدم مهاجـمة الأردن خلال فترة الـعمليات ضـد مصر، وتـتعهد الحكومة البريطانية بعدم مساعدة الأردن فى حالة قيامه بمهاجمة إسرائيل.

٦- الحفاظ على السرية المطلقة لتسويات البروتوكول الحالى.

٧- ستدخل هذه التسويات حيز التنفيذ بعد موافقة الحكومات الثلاث.

توقيعات« ديفيد بـن جوريون. باتريك دين، كريستيان بينو».وهكـذا تغلق صفحة من صفحات التاريخ المعاصر.

تكون إسرائيل (ذراعا مستقبلية) وليس زمنيا فقط فى الخمسينات وهو ما يمتد مستقبلا..

ولا يبعد عن ذلك اشتراط الوسيلة (إسرائيل) أن يكون لتحويلها لصالح الغرب ثمن والثمن، هو- داخل الوثيقة ايضا- أن تتعهد فرنسا بإمداد إسرائيل بمفاعل ذرى يكون له القدرة- فيما بعد- لإنتاج قنابل ذرية»

وهو هدف لايقتصر على الإدراك الصهيونى فقط، وإنما على الإدراك الغربى قبل ذلك من تنمية هذه الذراع فى شرق المتوسط للإفادة منها مستقبلا.

وهو مايفسر محاولات الغرب الآن لنزع السلاح النووى عن دول العالم الثالث، والتحذير من استخدام المواد الذرية على أى مستوى، فى حين أنه يصمت أمام تملك إسرائيل (ترسانة) ذرية كاملة، وإذا احتاج الأمر فهو يدافع عنها إما بالوسائل الدبلوماسية أو (بالفيتو)..

وهو ما يعود بنا، ثانية، إلى كتاب د. عبد الوهاب المسيرى (أسرار العقل الصهيونى) حين يشير إلى بعض الاستعارات المتواترة فى الغرب.

وهى استعارات كثيرة.

من أهمها تلك الاستعارة التى تعتبر إسرائيل كلب حراسة.

فقد وصف البروفسور ليبوفيتس فى حديث له فى صحيفة فوماند- ٨ مارس ١٩٧٤ - إسرائيل بأنها «عميل للولايات المتحدة» ووصف الإسرائيليين بأنهم « كلاب حراسة للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا على القيام بهذه المهمة».

وقد طور الصحفى الإسرائيلى عاموس كينان هذه الاستعارة المثيرة من عالم الحيوان وجعلها أكثر حدة وإثارة إذ وصف إسرائيل بأنها «كلب حراسة رأسه فى واشنطن وذيله فى القدس».

وهى كلب حراسة قوى لكنه يحتاج إلى حماية.

ويفضل العرب استخدام استعارة (مخلب القط) لوصف الدولة الوظيفية.

وهى استعارة مألوفة وشائعة فقدت كثيرا من قوتها بسبب تكرارها الممل، وإن كانت معبرة تماما وهذه الاستعارات الكثيرة التى نجدها فى (الوسيلة) أى إسرائيل تؤكد أن أهميتها فى الإدراك الغربى أو- حتى- الصهيونى فى العائد الاقتصادى وإنما فى الدور الاستراتيجى.

إذ أن كل الاستعارات تفترض وجود دور يؤدى وثمن يدفع..

وعلى هذا النحو، فإن الدور الصهيونى الحقيقى فى الإدراك الغربى، وبالتبعية- فى الإدراك الصهيونى لا يتعدى هذه الدور المتحول إلى (وسيلة) لصالح الشمال الاستعمارى.

أو ليست الصهيونية أهم مراكز هذه الشمال الاستعمارى البغيض؟

(٥)

هذا هو الكتاب الثانى عن المفاوضات السرية وهو جهد لا يقدر عليه إلا رجل من ذوى العزم كالأستاذ هيكل..

وإذا كان الكتاب الأول يتحدد حول «الأسطورة» وتحويلها إلى دولة، فإن هذا الكتاب- «يتحدد حول (عواصف الحرب والسلام) فى فترتى عبد الناصر والسادات، وهى فترة- كما نرى- مثلت أهم فترات تاريخنا المعاصر بالقدر الذى أثارت فيه من أسئلة وغيبت فيه من أمور..

وسوف نعرض هنا بعض هذه الأسئلة الكثيرة، التى لا تزال تمثل ثغرات غائرة فى تاريخنا المعاصر..

من هذه الأسئلة حكاية محمود أبو الفتح، إذ جاء ذكر محمود أبو الفتح أكثر من ثلاث مرات فى هذا الكتاب، ورغم أن الأستاذ التزم

الحيدة، وحاول أن يكون عرضه لدور هذا الصحفى المصرى فى الإطار الذى اختاره، فإن وجود محمود أبو الفتح فى أوروبا وقبلها فى مصر، وما أثاره مع حكومة الثورة أول قيامها، وتحريكه لأصحاب (المصرى)- من عائلته- بعدها ثم طبيعة النشاط المهنى الذى كان يقوم به- بعيدا عن النشاط السياسى- هكذا كله وغيره يثير تساؤلات كثيرة عن دور محمود أبو الفتح.

وقد سبق للأستاذ هيكل أن فصل جزءا من حكاية آل أمين فى أكثر من مرة- خاصة مصطفى أمين- منها فى كتابه (بين الصحافة والسياسة).

أما حكاية آل أبو الفتح فقد أثيرت منذ فترة، وأقيمت القضايا وارتفعت الصيحات وما لبث أن هدأ كل شىء، ولم يقل لنا كثيرا عن «آل أبو الفتح» ودورهم الحقيقى فى تاريخ مصر وهو ما يحتاج كتابات الأستاذ هيكل نفسه..

ومن هذه الأسئلة أيضا حكاية «رجل الشيوعية الغامض والقديم من مصر»- على حد تعبير هيكل نفسه، وهو هنرى كورييل ودوره فى المفاوضات السرية بين النظام الناصرى والصهيونية فى فلسطين.

وحكاية كورييل تبدأ داخل هذا الكتاب حين تمكن فى أبريل عام ١٩٧٠ من ترتيب اجتماع بين جولدمان ممثل المنظمه الصهيونية وبين أحد أقطاب حركة اليسار فى مصر (وهو مسئول سابق فى تنظيم حدتو الذى أنشأه ورعاه كورييل)، وهو مايثير الأسئلة:

ماهى حكاية كورييل فى هذا الوقت؟

وماهى طبيعة العلاقة بين كورييل ودولة الصهاينة فى فلسطين؟

والمعروف أن قصة كورييل فى مصر تبدأ قبل الثورة وتستمر بعدها، فقد كان كورييل رأس أكبر الأحزاب الشيوعية فى مصر (حدتو)، ولعب دورا خطيرا فى استقطاب العناصر الوطنية من شتى الطبقات- البرجوازية والأرستقراطية والعمال- طيلة الأربعينات، ولعب دورا لا يمكن أن يقال

الآن إنه كان لحساب التنظيم الأممى أو الشيوعى- كما كان يزعم بتحالفاته-، وإنما لعب دورا- تفصيلاته كثيرة جدا- كان يصب فى النهاية فى طاحونة الصهيونية المغتصبة فى فلسطين مهما كان تذرعه بمحاربة الإمبريالية العالمية، وإيثاره حرب الاستعمار أكثر من مواجهة الصهيونية.

.... هذا الرجل انتقل من مصر إلى باريس وأنشأ هناك مركز قيادة لتنظيمه ظل على اتصال بعدد كبير من الشيوعيين والمصريين، حتى كان أن بدأ اتصاله الهام بين ممثلى الصهاينة وبعض المصريين الآن.

بيد أن الأسئلة التى تحيط بهذا اللقاء بين كورييل وأحد أقطاب حركة اليسار تحمل غموضا يحتاج لتفسير أكثر..

ومن أكثر الأسئلة غموضا فى مرآة التاريخ السؤال عن موقف حسن التهامى.

وهو موقف ألح الأستاذ نفسه فى الإشارة إليه فى أكثر من كتاب سابق له، ومع ذلك، ففى كل مرة يعرض لنا فيه مقطعا رأسيا كما يرى من الخارج، دون أن يعمقه، أو يضعه فى الإطار الأفقى له، ويتركنا حائرين :

لماذا التهامى؟ ومن هذا الرجل الذى يتأرجح بين الخرافات والتصوف؟

وما هى العلاقة بين السادات والتهامى؟

وماذا كانت العلاقة بين التهامى وعبد الناصر قبل ذلك؟

وماذا يحمل التهامى فى جعبته من الوسائل التى تجعل الكثيرين يصمتون عن مواقفه الكثيرة الغريبة الغامضة؟.. إلخ

ففى هذا الكتاب الذى بين أيدينا نرى- على سبيل المثال- كيف أرسل الرئيس السادات حسن التهامى (دون سواه) إلى المغرب لـلقاء موشى ديان فى فترات التحضير «لكامب ديفيد».

وهناك يترك التهامى المفاوضات مع ديان فجأة ليسأله وهو يركز بصره عليه قائلا:

- «قل لـى بصراحة ألـم يكن جمـال عبد النـاصر متآمـرا معكم سـنة ١٩٦٧؟»

وأمام حيرة دايان يواصل التهامى تهاويمه:

- «إنه رجل مجنون، وأنا سوف أكتب كتابا عنه»

فهل مثـل هذه المواقف لحسن الـتهامى تجعلنـا نصمت عن طبـيعة هذا الرجل وعلاقاته الغامضة، ومواقفه الأشد غموضا.

خاصة، وأن كثيرا من معاصرى ديان مازالوا بيننا، وفى مقدمتهم الأستاذ هيكل نفسه..

هذه عينة من الأسئـلة التى يثيرها الكتاب الثـانى الذى بين أيدينا الآن، وهى قلـيل من كثـير، مايدفـعنا إلى إثارتـها الآن أنها تـشكل جزءاكـبيرا غامضا من تاريخـنا المعاصر، نعتقد أن أكثر من يملك الإجـابة عنها الأستاذ محمد حسنين هيكل نفسه.

(٦)

من الأسـئلة التـى طرحها الأسـتاذ هيكـل فى هذا الكـتاب الثانـى عن المفاوضات السرية (عواصف الحرب وعواصف السلام).. هذا السؤال الذى يسأل فيه ويجيب.

السؤال هو:

كيف تم تطويع العقل العربى (أو أعيـد تركيبه)!! لقبول فكرة السلام مع إسرائيل، وعلى أساس الأمر الواقع منذ أواخر السبعينات؟

وهنا تبدأ الإجابة..

لقد تحول مثقفو عبد الناصر- فى كثير منهم- إلى مثقفى السادات- فى أغلبهم- إلى واقع مغاير، فتركوا أنفسهم للتيار الداخلى الذى كان يدعو بعنـف ودون مناقشـة- إلى سياسـة السلام، فى حـين كان التيـار الخارجى يجرف الجميع خلال المنظمات والمؤسسات والإغراءات الهائلة التى توالت

إلى المرحلة الجديدة، وراح الجميع- تحت معاناة الدوار- يبحثون عن صياغات جديدة لعالم أو لنظام عالمى جديد كان يضع لمساته بدأب كيسنجر (العزيز)..

كان المثقفون فى ذلك الوقت، بتفسير الأستاذ، أكثر من غيرهم فى معاناة حالة الدوار..

ذلك أن الصياغات الجديدة لم تفاجئهم بأسسها وأطرها فحسب، وإنما فاجأتهم أيضا تأثيرات الثورة التكنولوجية فى مجال الاتصالات، وقد أغرقتهم بسيل فاق كل توقعاتهم. كما فاجأهم ماكانوا يرونه من سرعة التحولات فى العالم العربى دون مشاركة منهم فى تأصيل أو تحليل أو تفسير ما يجرى أمامهم. وبشكل ما فإن تغييرات أساسية كانت تجرى على تركيبة المشتغلين بقضايا التأصيل والتحليل والتفسير..

قبل الثورة. كان هناك نسق ثقافى وفكرى تابع، وبعد الثورة، وبالتحديد بعد السويس، بدأ ظهور نسق آخر. وباندفاع مد حركة القومية العربية بأبعادها الاجتماعية فى التعليم، التصنيع، وبحركة الصعود الاجتماعى النشيط لعناصر جديدة، طرأت على الفكر العربى ثقة زائدة تحولت إلى نوع من الكسل الفكرى ما لبث أن استيقظ على صدمة ١٩٦٧.

لقد ضبط الكثير منهم على غير استعداد..

وهنا يذكر الأستاذ هيكل تعبيرا يصدق على هذه الحالة إلى حد كبير، إذ يفتح قوسا ليكتب عن المثقفين.

- (سقطت من حولهم جدران الحمام- كما يقال فى التعبير الشائع)

وهو ما يفسر لنا تخبط الكثير منهم بعد ذلك.

فلم يكن لديهم من تبرير غير إلقاء اللوم على الهزيمة. فهم صدقوا ماقيل لهم، ثم اكتشفوا أخيرا أنهم كانوا ضحايا وهم.

وتلك كلها يسميها الأستاذ عمليات تنصل من المسئولية ونوعا من الهرب حتى وإن بدا هربا من الأمام..

ويجب ألا تخدعنا تعبيرات الأستاذ هيكل الدرامية، أو لغته التى تقترب كثيرا من الشعرية الدافقة فى تصوير موقف ليس شعريا بالمرة.

إن سؤاله الذى طرحه لا يكتمل دون أن نسأل عن موقع الأستاذ هيكل نفسه فى هذا الوقت: أين كان؟

ثم ألم يكن مشاركا بشكل ما فى تيارات المثقفين ونشاطاتهم قبل ثورة يوليو وبعدها وبعد تولى السادات المسئولية؟

أيضا، ألم يلعب دورا حيويا فى قيادة المثقفين ومنحهم بعد أدوارهم ومسمياتهم فى فترة من الفترات؟

ثم من يستطيع أن يزعم لنا أن خلاف الأستاذ هيكل مع الرئيس السادات كان له علاقة بحالة (المثقفين) الذين استناموا طويلا فى الحمام قبل أن تسقط الجدران.

أسئلة كثيرة غامضة..

نؤجل الإجابة عن أسئلة الأستاذ لما بعد (ربما يكتب لنا سيرته أو مذكراته) ونعود إلى نفس الحالة

حالة سقوط جدران الحمام.

حالة نجدها تتكرر فيما بعد كثيرا ثانيا وثالثا ورابعا.. إلخ

فلم تسقط الجدران فى نهاية السبعينات فقط، بل توالى سقوطها بعد ذلك كثيرا.

ولعل أهم ما نتذكره هنا هذا السقوط الدراماتيكى الرهيب الذى حدث للمثقفين قبل حرب الخليج الثانية وبعدها (٨٩/ ١٩٩٠).

ثم هذا السقوط المستمر على زلازل أوسلو وطرقات الحديقة الخلفية للبيت الأبيض ثم مدريد وإيلات وقانا والنبطية وأخيرا- وليس آخرا- مؤتمر القمة العربى الذى نعايشه هذه الفترة جميعا ونحن فى موقف (أو موقع) نخجل منه كثيرا..

باختصار، لقد سقطت الجدران منذ زمن بعيد

ومازلنا فى أماكننا فى وضع معيب لانبارحه بعد، ومازلنا نسمع الكلمات القديمة، ونقيم المآتم التقليدية.

ونجهل المفاهيم الجدية لكلمة (الأمن) أو كيف تحول الأمن إلى (تنمية) بالمعنى المصيرى الجديد الذى تمنحه لنا العلوم الحديثة فى الاتصالات والتكنولوجيا.. وما إلى ذلك، ونعيد التاريخ من جديد ولكن بصورة (هزلية) هذه المرة..

يروى عن «هيكل» يروى عن «كيسنجر» أنه فى سالزبورج.. قال له الرئيس «السادات»:

- «هنرى، إننى أريد أن تكون مستشارى للأمن القومى المصرى».

فيرد، على الفور:

موافق

(٧)

تثيرنا- لا تزال- هذا الأفكار التى بين أيدينا عن كتاب المفاوضات السرية (عواصف الحرب وعواصف السلام) فى جزئه الثانى.

ومايثيرنا فيه ليس فقط عرضه لأهم فترات تاريخنا فى الصراع العربى الإسرائيلى، وانما- أيضا- لأن اسم صاحبه يتناثر بين الصفحات مثلما تتناثر أسئلته بين السطور.

وهو تناثر موح لايمكن تجاهله.

إن حضور الأستاذ طاغ مؤثر لايمكن الإفلات منه.

ومع أنه يقال إن السؤال الجيد نصف الجواب، فإن أسئلة الأستاذ، تبعد عن أى جواب وهو مايحتاج إلى تفسير أكثر..

إذ كثيرا ما يبدأ السؤال فى سياقه التاريخى والواقعى ولا يلبث أن ينفرط عقده ليظل معلقا فى الفضاء ليمضى السياق دون إجابة فى كثير من الأحيان.

وربما يعود ذلك إلى تشابك الأحداث وتعقد الخيوط، غير أن هذا التشابك وذلك التعقد يضئ حدثا ويضيق بأحداث ووقائع وشخصيات كثيرة وعلى هذا النحو.

فليست الأحداث وحدها هى المسئولة، وإنما الكاتب نفسه الذى يحاول الخلاص من كل تلك الخيوط فيوفق مرة ويصمت مرة ومرات.

وهذا التوفيق وذلك الصمت هو الذى يطرح الأسئلة الناقصة التى سبق أن أشرنا إلى بعضها من قبل..

والكاتب نفسه هو الذى يملك الخيوط كلها، فيظهر بعضها مرة، ويهمل بعضها مرة أخرى، وهوفى الإظهار أو الإهمال يمثل جزءا ذاتيا يثير ما يريد من وجهة نظر المثقف- الصحفى- الشاهد.

وهى وجهة نظر لا تزعم لنفسها- ولايمكن أن نزعم لها الحيدة الكاملة- فالحيدة- كما هو معروف فى العلوم الطبيعية أمر نسبى.

وفى الوقت نفسه، فإن الحيدة فى وجود الوثائق لابد أن تؤثر فى الحيدة نفسها (فالحيدة تتأثر بغزارة الوثائق كما تتأثر بقلتها).

ومن ثم، فإن الشهادة هنا تصبح، إذا تحولت إلى (مذكرات)، تراكم دال إلى التاريخ الذى يكتبه صاحبه، مما يحدد- فى المستقبل- أهمية هذا المصدر إلى جانب المصادر الأخرى.

ندعو- إذن- الأستاذ إلى كتابة مذكراته (وهو ما سنعود إليه مرة أخرى)...

وندعو كذلك أن تكون هذه الكتابة فى أقرب وقت وندعو أكثر أن يستفيد فيها الأستاذ بالوثائق التى وصلت عنده إلى أعداد هائلة..

ولأننا نعلم أن المذكرات لا يجب أن تكون فى قوقعة الذات، وإنما تظل مع ذكاء مثقف أو سياسى مثل الأستاذ بين الذات والعام، فإننا

سنضمن أن الأستاذ سوف يغلو أكثر فى حيدته حين يختلط بالأحداث، ويحاول من وجهة نظر الشاهد أن يكون محايدا أكثر.

ومن هنا، نصل إلى أمرين: شهادة على الذات وشهادة على العصر، وفيهما يسعى الأستاذ للتخفف مما يثقل به التاريخ صاحبه، أو التكشف أكثر- وهى أهم سمات المذكرات (لانقول الذكريات) مما يصل بنا إلى إجابات شافية تكون أقرب إلى الواقع من سابقتها.

لايجب أن يتصور أحد أننا نغفل أن كثيرا من كتب الأستاذ وكتاباته تحتوى على كثير من عناصر الذات (ولنذكر فى هذا أنه كتب كتابه المعروف : بين الصحافة والسياسة، كما أن بعض كتب الثلاثية الأخيرة يتناثر فيه ضمير المتكلم، كما تتناثر صور من سيرته بين الأحداث لتأدية وظيفة فرعية..).. بيد أننا نريدها هنا أقرب إلى (الاعترافات) منها إلى كتابات (الصحفى) الذى لا يتعب الأستاذ من تحديد صفته دائما.

إنه لا يكف قط عن القول ويردد فى كل مناسبة إنه يقترب من صفة (الجورنالجى).

بل يصرح دائما- كما قلنا فى موضع آخر- أنه يستعذب هذه الصفة، ويرددها كى تضيف إلى هذا الحب دهاء قلما يمر لدينا دون إعادة نظر، خاصة، إذا تعلق الأمر بكتابة التاريخ فى أخطر فترة من فترات تاريخنا العربى الحديث والمعاصر، فى النصف قرن الأخير..

يدفعنا إلى ذلك مايلاحظ من أن اسم الأستاذ يأتى كثيرا فى سياقات تحتاج إلى كثير من الكشف ويلاحظ أن صاحبها يحاول أن يعبر عن اسمه بتواضع يقتضيه السياق (مهما حرص على الحقيقة) وتزيد قناعتنا هنا لما نعرفه جميعا من أن الأستاذ عرف أكثر من زعيم- خاصة جمال عبد الناصر.

وشارك فى أكثر من حدث فى فترتى عبد الناصر والسادات

كما أن اشتراكه فى الأحداث السياسية نشأ سواء لاقترابه من الزعيم أو الرئيس أو لكونه كان صاحب أكثر من منصب ثقافى أو سياسى

وهنا يجب التوضيح أكثر..

فإلى جانب مسئوليته عن الأهرام والأخبار.. إلخ كان- فى فترة- وزيرا للإرشاد وفى الوقت نفسه قائما بأعمال وزير خارجية لفترة محددة.

فضلا عن كونه عمل لفترات غير منظورة كقنوات سرية وغير سرية كما كان رجل المهمات الكبيرة لفترات طويلة.

وعلاقاته بالشخصيات المهمة، خاصة الأمريكية منها، ومن أجهزة المخابرات الأمريكية على وجه الخصوص تجعلنا نتأنى أكثر (انظر فى هذا كتاب فؤاد زكريا «كم عمر الغضب»)

أضف إلى ذلك كله أنه يعرف- بشكل شخصى- الكثير من زعماء العالم وملوكه، وربما اقترب بصداقات شخصية بكثيرين منهم.

وهذا وغيره يمنح أهمية كبيرة لهذه المذكرات التى ستقدم لنا الكثير من الإجابات على أسئلة كثيرة غامضة رغم استعادة الأستاذ فى كتاباته للأحداث الماضية واستفادته بالوثائق التى لا نجدها- قط- اللهم إلا فى حوزته الخاصة حين تودع فى بنوك خارج الوطن وستودع فى قنوات غامضة، أو على الأقل لا نعرفها حتى اليوم (أو الذى يسمح بالكشف عنها فقط) أو لارتياده لآفاق قلما ارتادها أحد من مثقفى عصره أو سياسيه أو صحفييه الآن..

هؤلاء الصحفيون الذين يواجهون التضييق الشديد فى كل جهة من الجهات الأربع اليوم.

الملاحق

- خطاب طه حسين إلى مدير الجامعة.
- خطاب طه حسين إلى وزير المعارف.
- نقد العقاد لكتاب (فلسفة الثورة)
- كلمة العقاد أمام عبد الناصر.

ملحق (١)

كتاب طه حسين إلى لطفى السيد عقب هجوم الصحف والمؤسسات الحزبية عليه واتهامه بالكفر

حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أرفع الى عزتكم ما يأتى :

كثر اللغط حول الكتاب الذى أصدرته منذ حين باسم (فى الشعر الجاهلى) وقيل إنى تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه وإنى أعلم الإلحاد فى الجامعة وأنا أؤكد لعزتكم أنى لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه . وما كان لى أن أفعل ذلك وأنا مسلم أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأنا الذى جاهد ما استطاع فى تقوية التعليم الدينى فى وزارة المعارف حين كلفت العمل فى لجنة هذا التعليم.

يشهد بذلك معالى وزير المعارف وأعوانه الذين شاركوا فى العمل وأؤكد لعزتكم أن دروسى فى الجامعة خلت خلوا تاما من التعرض للديانات لأنى أعرف أن الجامعة لم تنشأ لمثل هذا العمل.

وأنا ارجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاؤون وتنشره حيث تشاؤون وأن تقبلوا تحياتى الخالصة وإجلالى العظيم .

فى ١٢ مايو ١٩٢٦

الختم

طه حسين

ملحق (١)

خطاب طه حسين إلى وزير المعارف العمومية

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية

الآن وقد تم تعيين العميد لكلية الآداب وانتهت هذه القصة التي لم أراها والتي لقيت فيها من الضغن ما لم استوجبه ولا آراه يلائم كرامتي. اتشرف بأن أرفع إلى معاليكم أصدق الشكر وأخلصه لما تفضلتم به علي من عطف وثقة. وارجو من معاليكم أن تتفضلوا بنقلي إلى عمل آخر في غير كلية الآداب التي أصبحت أجد مشقة كبيرة في البقاء فيها.

وتفضلوا بقبول تحيتي الصادقة وإجلالي العظيم

٩ يناير ١٩٢٨

طه حسين

(ختم)

ملحق(٣)
كلمة العقاد أمام عبد الناصر

عيد القلم(١)

فى هذه الهالة من حضرة الرئاسة السامية.

وفى ملأ من هداة العرفان والمهتدين بهداه.

وعلى مسمع من العالم العربى ـ حاضرا حيا وماضيا خالدا ومستقبلا موعودا بالمزيد من جد الحياة ومجد الخلود.

وبين أعياد العلم وتهانى العلماء والمتعلمين.. إننى لفى محراب .

إننى لفى المحراب الذى يملى دعاء الشكر فريضة واجبة، بل فريضتين واجبتين، لأنهما فريضة فى الأعناق وفريضة فى الرؤوس. أقربهما منى، وأولاهما بى فريضة الشكر على النعمة التى تخصنى وتنهى إلى ، ولست أطيل فيها ولا أحمد لنفسى أن أطيلها، خشية أن يسبق إلى الخاطر أن إطالة تؤدى حقا لا يؤديه الإيجاز، وإننى أطلت فوفيت، وفرغت من قضاء الشكر على ماتلقيت، وإنه لمقام يستوى فيه الإطناب والاقتضاب، ويتلاقى فيه الابتعاد والاقتراب . فمهما يكن من وفاء واحد من الآحاد فما هو بكفاء حق الألوف شاهدين وغائبين،وحق المستمعين اليوم والمستمعين بعد حين. ولا بأس فى حيلة إذا قصرالحول عن بلوغ مداها، ومن الحيلة أن أتجه بالشكر فردا إلى كل فرد من أصحاب الأيادى المشكورة على حدة، فعسى أن يقال واحد أسدى وواحد شكر، ولو تردد التكرار والتعداد آحادا بعد آحاد.

والفريضة الاخرى بل الأولى، فريضة الشكر على النعمة الكبرى واليد الطولى : نعمة الوعى القومى الذى وعانا فوعيناه ورعانا فرعيناه ـ وعى بحمد الله يقوم القيم فى عالم الفكر والثقافة، ويحكم لنفسه فيزكيه أهل الذكر والحصافة، ويشملنا جميعا،وفى من يختارهم لجوائز الدولة والأمة: تبرزهم جمهرة القراء ويؤيدهم صفوة العلماء.

---

(١) القيت هذه الكلمة فى حفل أقيم بجامعة القاهرة فى ديسمبر ١٩٦٠ حفلة لتوزيع الجوائز التقديرية والتشجيعية وفى العلوم والفنون والآداب شهدها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ونشرت فى الهلال فبراير ١٩٦١.

وقديما كانت قيم الدنيا والدين، وقيم العلم والمال، وكل قيمة يعتز بها الحاكم والمحكوم تبعا للسلطان القاهر، يلقى بها من عل فيتلقاها الناس طائعين خاضعين بل مطرقين مغمضين.

كان زمن من الأزمان يتعم فيه السلطان بطيالسة المجد والعظمة، بل بمسوح الزهد والتقوى ، فإذا بالمنعم عليه مجيدا ولو كان فى ذل العبيد، وإذا بالغوى العصى زاهدا متصوفا، وإن كان فى الزهد والتصوف زهيداً، أو دون الزهيد.

فالحمد لله على ما ألهم هذه الأمة من وعى ويقوم القيم فى موازين الأدب، ومن «رأى عام» يجتهد بالرأى دائبا، فيسمع له فيما اجتهد ودأب، وحسبنا من شرف أن يحسبنا علامة من علاماته، وعنوانا من عناوينه، وأن يختارنا ـ كرما منه ـ سببا من أسبابه لتسجيل حكمه، وإعلان فضله. وإنه لفى يد الله ـ جل وعلا ـ أن يؤهلنا لهذا الحق، وأن يجعلنا كفأ له فيما نصنع إن شاء، وفيما صنعنا كما شاء.

إن أسعد عيد من أعياد صاحب القلم أن يكتب بقلم تحمله معه بنان القارىء، وأن يخط على قرطاس تبسطه أمامه عين المتصفح، وأن يكون تقديره من قبل أمته اشتراكا معه فى الفهم والإفهام، ومعاونة له على الفيض والإلهام، وأن يسمع فيه صوت الاختصاص ملبيا لصوت العام والخاص، وتأتى فيه موازين الفنون رجحانا لموازين الأذواق: قدرا من الأمة وإليها، وفضلا محسوبا لها ومحسوبا عليها. وتلك هى جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم، وجوائز الأمة مرادفة فى معناها لجوائز الدولة. لاجرم تهل على أعيادها طلعة الرئاسة مشكورة مأثورة واسم الدولة أسم الأمة، وتنبعث فيها أشعة الآمال فى خير مايرجى من شمائل الحرية والاستقلال .

ملحق(٤)

نقد العقاد لكتاب (فلسفة الثورة)

فلسفة الثورة في الميزان

العقاد ينقد كتاب جمال عبد الناصر

أثارت «فلسفة الثورة» التي كتبها الرئيس جمال عبد الناصر واختص بنشر
ساعة، ضجة هائلة لم يثرها أي شيء كتب عن الثورة

لقد ترجمتها جامعات العالم الكبرى وفي مقدمتها أوكسفورد وجعلتها مادة د

وترجمتها معاهد التاريخ الكبرى وفي مقدمتها المعهد الأمريكي للتاريخ ا
ومضت تستخلص من سطورها كل معنى بل كل خلجة!

وعلق عليها كبار الكتاب حتى أن ليدل هارت زعيم النقاد والكتاب في الاستر
العسكرية والسياسية كتب معلقا عليها أنها تصلح لتكون نورا يلقى على كثير من أ
افريقيا وآسيا ويفسرها.

وهذا هو مقال للكاتب الكبير عباس محمود العقاد ينقد فيه ويحلل فلسفة
التي كتبها جمال عبد الناصر ونشرتها له آخر ساعة

وإن آخر ساعة ليهمها أن تعلن أن جمال عبدالناصر قد بدأ يكتب جزءا جد
فلسفة الثورة وإن آخر ساعة ستنفرد بنشره أيضا.

(١) الثورة الفرنسية

كان شعار الثورة الفرنسية هذه الكلمات الثلاث: «الحرية والإخاء والمساواة»

وهي كلما منغومة على قافية واحدة في اللغة الفرنسية، يحسب الكثير
يسمعون الهتاف بها أنها قد اختيرت لحسن وقعها في الأسماع وسهولة مجراه
الألسنة، ويظنون أن كل «ألفاظ ثلاثة» من قبيلها تغني غناءها وتستهوي الأ
استهواءها.

ولكنها في الواقع كانت كلمات الثورة الفرنسية التي لاتصلح لها كلمات
وكانت كل كلمة منها مدرسة لغايةمقصودة لاتغني عنها غاية أخرى، لأنها كانت
الخلاف القديم بين الأنصار والخصوم.

كانت «الحرية» غرضا مقصودا، ومبدأ مختلفا عليه

كان الملكيون يزعمون أن «الملك» يحكم بالحق الألهى وأن سلطانه مستمد من سلطان السماء، فليس للرعية حرية مع راعيها لأن مشيئته من مشيئة الله، فمن خرج عليه فهو خارج على خالقه ومولاه

أما الثائرون فكانت مشيئة الشعب عندهم هى قوام الحكم وسنده الذى لاسند له غيره، فمشيئة الشعب من مشيئة الله، وعلى الملوك أن تطيع شعوبها وتعمل على رضاها، وإلا فهم الخارجون على سلطان الأرض والسماء.

كذلك كانت كلمة «الإخاء» مبدأ مختلفا عليه أشد الاختلاف أو كان الاختلاف عليه مجزرة قضى فيها على أكثر من مائة ألف فرنسى قبل جيلين ، وأوجبت هجرة الملايين إلى غير بلادهم قبل عصر الثورة بسنوات، اذ كانت العقيدة الغالبة أن الخلاف بين المذهب الكاثوليكى ولامذهب البروتستانتى خلاف بين الأبرار والأشرار ، وأنه لاهوادة بين الفريقين إلا كما تكون الهوادة بين حزب الله وحزب الشيطان، وفى سبيل ذلك سالت الدماء بين الفريقين وصدرت الأوامر الصريحة بنفى كل فرنسى يدين بنحلة غير النحلة التى ارتضاها ولاة الأمور.

أما دعاة الثورة الفرنسية فقد كانوا ينكرون هذا الخلاف وينادون بشريعة الإخاء فى الوطن الواحد، فلا عداء بين أبناء الوطن لأن «الوطن » أبو الجميع ، وكل أبنائه أخوة متحابون، ومن هنا تقرر مبدأ الإخاء.

وكذلك كانت كلمة« المساواة» نحن خلاف ونزاع ومجالات ومناظرات يشترك فيها المفكرون كما يشترك فيها المؤمنون المتدينون، فلا مساواة بين النبلاء والسوقة ولا بين الموسرين والمعترين فى رأى أعداء الثورة، ولاتفاوت بينهم فى رأى دعاتها المطالبين بإصلاح المجتمع على أساسها، ولقد كان النزاع ملحوظا معترفا به فى تكوين المجالس النيابية الأولى، فكان النواب يحضرونها على حسب مابينهم من التفاوت فى الدرجات والطبقات .

(٢) الثورة التركية

والمعروف أن جماعة « تريكا الفتاة» كانت تقتدى بجماعة إيطاليا الفتاة وأن رئيسها الفيلسوف أحمد رضا كان كثير الإطلاع على كتب ماتسينى وفلسفة أوجست كونت،

وكان مشهورا بدقته فى اختياركل كلمة من كلماته، ولاسيما الكلمات التى ترتسم بها الخطط وبرامج الإصلاح

فلما اختارت هذه الجماعة شعارها للثورةالتركية لم تذكر كلمة الإخاء وذكرت فى مكانها كلمة العدالة، ولم يحكين قصارى مافى الأمر إبدال كلمة بكلمة أو إيثار نغمة على نغمة فى نشيد الثورة، بل كان هذا الإبدال قصدا أساسيا فى برنامج النهضة يدل على تفصيلات واسعة فى سياسة الحكم الحديث

فلم يكن هناك معنى لوضع كلمة الإخاء فى شعار ثورة تركية، فإن الأمة التركية قد فرغت من تقرير الأخوة بين المسلمين فى بلادها وغيربلادها،و« إنما المسلمون إخوة» حقيقة من حقائق الإيمان بالدين جرت على لسان الطفل الصغير والشيخ ا لكبير.

فإذا نظر المصلح التركى إلى الأقوام الآخرين فى الدولة فمبدأالمساواة يشملها جميعا على اختلاف الأجناس والأديان

أما النص على «مبدأ العدالة» بين المبادىء التى يرددها شعار الثورة فقد كان لازما لبيان خطتها فى الداخل والخارج.

كان لازما لبيان خطتها فى مسألة الامتيازات الأجنبية، وهى ظلم واقع على أبناء البلاد تشير المطالبة بالعدالة إلى ضرورة رفعه ومعاملة الأجنبى معاملة الوطنى فى بلاده.

وكان لازما لبيان خطة الثورة فى مسألة الأحوال الشخصية التى كانت ترجع فى كل هيئة دينية إلى سنة تخالف غيرها فى شئون الزواج والطلاق والميراث .

وكان لازما لبيان القواعد التى يقوم عليها التشريع فى القوانين الوضعية والقوانين الدينية أو العرفية.

فكانت كلمة« العدالة» مبدأ لايغنى عنه مبدأ آخر فى مكانه، ولم تكن مجرد نغمة ف النشيد تعادل غيرها من النغمات.

(٣) الثورة الصينية .

وجاءت الثورة الصينية فلم تذكر كلمة واحدة من كلمات الثورة الفرنسية الثلاث

لم تذكر الحرية ولا الإخاء ولا المساواة، ولم تهملها لأنها تأباها ولا تحبها كما يحبها الفرنسيون ولكنها لم تجد معنى يستوجب النص عليه فى شعارها لأن تاريخ الصين قد اتسع غيرمرة لارتقاء آحاد الشعب إلى عرش ابن السماء، ولأن عبادة الأسلاف عندهم

تجعل القرابة المفروضة بينهم كقرابة الدم والسلالة، ولأن نظام الرق قد بطل فى تاريخهم لأسباب محلية قضت على الفارق التقليدى بين السادة والعبيد.

فلهذا لم تكن بهم حاجة إلى ثورة للمطالبة بالحرية والإخاء والمساواة، ولم تكن مبادئ الثورات الغربية قبلتهم فى القرن العشرين ولا فيما تقدمه من القرون ، واختار زعيمهم العظيم مبادىء ثورتهم فحصرها فى كلمات ثلاث مقصودة بكل حرف من حروفها: وهى مبادىء القومية والديمقراطية والاشتراكية القومية لإحلال الوطن محل الدولة فى معاملة المغول والمنشوريين والتتار وأبناء التبت المشتركين على الحدود.

والديمقراطية يقصد بها غلبة الشعب لامجرد الحرية الشعبية، لأن الزعيم العظيم« سن ياتسن» كان يتوسع بديمقراطيته لا يقنع بتطبيقها فى بلاده كما تطبق فى الأمم الأوربية أو الأمريكية، بل كان يريد أن يتدرج بها حتى تشمل حق إلغاء الشرائع من قبل الجماعات الشعبية ، حوق اقتراح الشرائع من قبل تلك الجماعات وفقا للنظام الدستورى الذى يمنع الفوضى والارتباك فى تقرير القوانين ومراجعتها.

أما الاشتراكية فكانت لازمة لبيان موقف الأمة من الأموال الأجنبية، وكانت السكك والمواصلات والموانىء تدار لحساب الدول وبأموال شركاتها، وكان الزعيم الصينى لايرفض الاستعانة بالأموال الأجنبية ، ولكنه يرفض الاستغلال والتسخير ويرى أن يكون تثمير المال على القواعد الاشتراكية سواء فى معاملة الأجانب أو معاملة أبناء الصين.

وهكذا يبدو لنا أن مطالب الأمم وضروراتها تفرض نفسها فى شعار كل ثورة من ثوراتها ، فلا تمتاز كل ثورة بشعارها الخاص لأنه نغمة محبوبة أو كلمات رنانة، تغنى عنها الكلمات التى تماثلها رنة ونغمة، وإنما تمتاز بشعارها الخاص لأنه تعبير عن كيانها وعن وجهتها وعن البواعث التى تمليها

(٤) الثورة المصرية.

وأوضح ماتتضح هذه الحقيقة فى شعار الانقلاب المصرى الأخير الذى قضى على حكم فاروق ثم قضى على حكم أسرته بحذافيرها

فإن هذا الشعار يقوم على كلمات ثلاث تجمع أشتات الفوارق التى بين موقف الأمة المصرية، ومواقف الأمم فى ثوراتها، وشعار «الاتحاد والنظام والعمل» هو النسخة المصرية التى لا تلتبس بنسخة أخرى فى وجهتها ولا فى تعبيرها.

فليس فى مصر مبدأ يثور على مبدأ، ولاعقيدة تتمرد على عقيدة ،ولامصلحة قومية تناقضها مصلحة قومية، ولكنه شعار واحد ليس فيه من يثور ولا من يثار عليه، لأن الوجهة واحدة متفق عليها لن ينكرها فريق حين يسلم بها فريق.

ويحضرنا إلى هنا كل احتمال يحضر فى خواطر المتحذلقين الذين يحسبون أنهم نفذوا إلى سر من الأسرار لايبدو على ظاهر الشعار فقد يقال إن الشعار قد بدر عفو الخاطر فلم يدرس على هذا الاعتبار .

وقد يقال إنه يعلن القليل ولايعلن الكثير، وقد يقال غير ذلك مما يستطيع المتحذلق أن يقوله فى كل مقام.

ولكن هذه الخواطر جميعا لاتقدم ولاتؤخر كثيرا ولا قليلا فى جوهر الحقيقة التى يمثلها الشعار باختيار أو بغير اختيار

فلو كان للأمة المصرية مطلب دافع غير مطالب الشعار لما استطاع أحد أن يهمله باختياره أو بغير اختياره ، لأن المطلب الدافع يتمثل فى شعوره وفى دعوته لامحالة، فلا يتيسر السكوت عليه .

إن شعار الثورة إذن هو شعار المصريين أجمعين بغير فارق فى وجهته ولا فى دواعيه.

كل المصريين يؤمنون بدعوة الاتحاد ودعوةالنظام ودعوة العمل.

كل المصرين مخلصين وغيرمخلصين

فمن لم يخلص منهم لن يقول إنه يأبى العمل أو النظام أو يأبى الاتحاد

ولكنه يصطنع العوامل التى تلتبس فى ظاهرها بالمصلحة العامة وتخفى من ورائها مآربه الشخصية وهذا هو لب اللباب فى موضوع الثورة.

هذا هو الجوهر الأصيل الذى لاتجوز الغفلة عنه طرفة عين

ليست العقبة فى طريق الإصلاح مبدأ من المبادئ الأصيلةيدين به فرد أو طائفة من الأمة المصرية ويجسر على المجاهرة به بغير مواربة ولانفاق

ولكن العقبة فى طريق الإصلاح هى العوامل المصطنعة التى لاتجرى مع الحق الواقع فى مجراه

وهذه العوامل المصطنعة هى آفة الآفات وهى العقبة الكبرى فى كل طريق .

فمن أمثلتها الكبرى أسرة مالكة يقضى وضعها الصحيح أن تكون «سلطة شرعية» تحارب السلطة الفعلية بقوة الأمة، ولكنها فى الواقع إنما كانت تعمل عمل الغاصب الذى يحتمى فى ثورة الأمة بقوة الاحتلال ، وتحسب أنها فى أمان من الثورة عليها مادام الاحتلال فى البلاد.

ومن الأمثلة الكبرى على العوامل المصطنعة وزارات الكثرة المزعومة التى عرفتها مصر بعد مفاوضات المعاهدة، فإن الوضع الصحيح لوزارات الكثرة أن تقوم بتأييد الأمة لمعارضة المحتلين،ولكنها فى الواقع إنما كانت تأتى على الدوام بطلب المحتلين لتسليم البضاعة،وكانت فى موقفها المتناقص تعجز عن إرضاء الاحتلال وعن إرضاء الأمة فى وقت واحد

وهناك أمثلة دون هذه الأمثلة تبرز لنا العوامل المصطنعة التى لابد من تصحيحها بالوضع الحقيقى فى غير مواربة ولا اصطناع.

هناك تلك الغيرة الكاذبة على الفقير باسم المذاهب الهدامة ، وما هى فى حقيقتها غير الدعاية الأجنبية تتستر بالغيرة على الفقير ولاغيرة لها على أحد من أبناء البلاد، وفقيرهم وغنيهم على السواء.

وهناك الدفاع الكاذب عن الإقطاع باسم التاريخ أو باسم الدين، فما كانت فى مصر ملكية زراعية ترجع فى العصر الحديث التى أبعد من القرن التاسع عشر والاسلام يرحب بتعميم الملكية وينكر كل الإنكار أن تنحصر فى أيد معدودات.

وعلى هذا النحو تنعزل المصالح الوطنية والعوامل المصطنعة كل الانعزال... فلاخلاف على المصلحة الوطنية الخالصة، وما من عقبة تقوم فى وجه الإصلاح إلا حين تتستر الحقيقة بالتلفيق والاصطناع.

إن كل حركة تتصدى للإصلاح فى مصر لا حاجة بها إلى عمل واسع تبتدئ به غير العمل على إزالة العوامل المصطنعة وتخليص القوى الطبيعية فى جميع طبقات الأمة من آفات التزييف والرياء. وليس المطلوب منها أن تنتهى إلى إصلاح لا إصلاح بعده أو إلى كمال لانقص فيه أو إلى رضى لاتنبعث فيه شكاية

كلا. ونزيد فنقول بل معاذالله فإن الإصلاح الذى لا إصلاح بعده موت، والكمال الذى لانقص فيه وهم ، والرضى الذى لا تنبعث معه شكاية جمود لايتعلق به الرجاء .

إنما تزول العوامل المصطنعة لتمضى العوامل الطبيعية فى طريقها مرحلة بعدمرحلة، وشوطا بعد شوط، وأمانة بعد أمانة ، يتولاها جيل فى إثرجيل .

فلسفة الثورة المصرية

وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا وثورات غيرنا نرى أن التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الأصول الكبرى.

فقد قرأت الصفحات الثمانين التى كتبها السيد الرئيس جمال عبدا لناصر فى كتاب «فلسفةالثورة» فخرجت منها وأنا اعتقد أن الخلاف عليها أقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفى مثل هذا الموضوع.

صواب ولاشك أن الحركة المصرية لا توصف بأنها تمرد عسكرى ولا توصف بأنها ثورة شعبية، لأن التمرد ماكان قط ولن يكون بإجماع الآراء واتفاق الآحاد والألوف والملايين، ولأن الثورة الشعبية لإسقاط ملك لايحميه الجيش أمر غير مطلوب وغيرمفهوم

وصواب ولاشك أن الحاضر يعيش ببقية من مساوئ العهود الماضية، وهذا هو باب الأسف والأسى ولكنه كذلك باب الأمل والعزاء ، لأنه يدفع اليأس من ا لنفوس إذا عولج فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح «إذ لم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون»

وصنواب ،كذلك ، أن الشك آفة معطلة للجهود معطلة للأفكار والآراء، فليس الإنصاف وحده بالذى يشفع لأصحاب الشكوك ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد أجيال وأجيال . ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ قبل شفيع الإنصاف.

يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر:«كان من السهل وقتها، ومازال سهلا حتى الآن أن نريق دماءعشرة أو عشرين أو ثلاثين فنضع الرعب والخوف فى كثيرمن النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأأواءها..»

ثم يقول: « ولكن أى نتيجة كان يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا العمل؟.. كان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التى مربها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار»

نعم .. يكون ذلك ظلما ويكون أكثر من ظلم ، لأنه يصيب من لم يصبه العقاب، فيضاعف داء الشك والحذر ويبطل فائدة العلاج وييئس من عقباه

ونضرب المثل لذلك بالشاهد المحسوس: رجل تكلفه أن يعدو على خط واحد إلى مسافة ميل، فإنه ليعدو على ذلك الخط ويعود فى مدى ساعة أو أقل من ساعة، ولا يحتاج إلى حيز من العرض يزيد على شبرين أو ثلاثة أشبار.

ثم تكلف ذلك الرجل نفسه أن يعدو فوق جدار يعلو على الأرض عدة أمتار ويتسع فى عرضه لأكثر من ثلاثة أشبار، فإن لم يسقط بعد خطوات فإنه لن يصل إلى نهاية الشوط قبل ساعات.

وماذا تغير بين الحالتين ؟ لم يتغير الرجل ولم تتغير قدماه ولم يتغير الحيز ولم تتغير المسافة، وإنما تغيرت« حالة نفسية» فتغير معها كل شئ.

هل يفيد ان نقول لذلك الرجل إن حذرك ياهذا غير معقول ؟ إنه قد يكون مؤمنا بذلك إيمان الناصح له أو يزيد ، ولكنها على هذا نصيحة لا تفيد

وهل نستطيع إن نعلم الرجل رياضة الأعضاء على الحركة حتى يتعلمها ويتعودها ويتحرك فوق الجدار كما يتحرك فى الأرض الذلول؟.

نعم نستطيع، ولكنه إذن جهد فى العمل أكبر من نتيجته وأضيع للوقت من تركه والعمل بغيره، وخير لنا الجهد الذى يبذل بمقداره: وإن عظم المقدار

على أن الصفحات الثمانين التى تحمل اسم «فلسفة الثورة» لاتنحصر بالقارئ فى حدود الأفق المصرى، وإن كانت لاتخرج به من آفاق المسألة المصرية فى أوسع حدودها.

فالمصرى فى عصرنا هذا لايهتم بوطنه حقا إن لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم لا انفصال لها من وطنه، وهى العالم العربى والعالم الأفريقى، والعالم الأسلامى من أقصاه إلى أقصاه.

ان مصيبة الأستعمار انه اوقع فى النفوس ان السياسى لا يهتم بأمة اخرى لا ليطمع فيها أو يبسط سيادته عليها. ولكننا حريون ان نذكر على الدوام اننا «غير مستعمرين» واننا لانحتاج إلى جهد كبير أو صغير لننفى هذه الشبهة عنا ، فليس فى وسع أحد يتهمنا بها ويجد من ذوى العقل السليم من يستمع إليه

أين نحن من العالم العربى؟

أين نحن من العالم الأفريقى؟

أين نحن من العالم الإسلامى؟

نحن فى قلب كل عالم من هذه العوالم، فليس فى وسعنا ان نجهل علاقتنا به ومستقبلنا فيه . يقول الرئيس جمال: « إن نصف الأحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية.. فنحن أقوياء، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول . وإنما أقوياء حين نهدأ أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل»

ويقول: «إننا لن نستطيع بحال من الأحوال - حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين.. إننا فى افريقيا .. والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة، ويبقى أيضا أن السودان - الشقيق الحبيب - تمتد حدوده الى أعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها، والمؤكد أن أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الان إعادة تقسيم خريطتها، ولن نستطيع بحال من الأحوال ان نقف امام الذى يجرب فى افريقيا ونتصور انه لايمسا ولا يعنينا»

ويقول عن العالم الإسلامى:

«حين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليون من المسلمين فى أندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ومايقرب من مائة مليون فى الباكستان وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الاوسط وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفييتى وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة - حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا، تعاون لايخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولأخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة»

وهذا كله صحيح فى الجملة والتفصيل وليس الاهتمام به من طموح الشباب كما يتخيل المتخيل الوادع فى عقر داره، بل اخشى ان اقول انه من اعباء الشيخوخة قبل أو انها، بل من همومها فى إبانها، إن كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ

ماذا نصنع إن جنى البترول على العالم العربى فضيعه بدلا من تزويده بأسباب القوة والمناعة ؟

وماذا نصنع إن أصبحت أفريقية للمستعمرين الأوربيين، ولم تصبح فى الغد القريب أفريقية للأفريقيين؟

وماذا نصنع إن تهدم معنى الحياة كما تمثله المادية الحيوانية أو كما تمثله الحضارة الحسية ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين وترتفع بها من غمار الذل والاسكانة أو غمار القنوط والحيرة؟

فروض جسام!

ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولاتنام

وليس علينا بالبداهة ان نعمل كل شئ

ليس علينا ان نعمل لنعفى من يأتى بعدنا من العمل، فاننا إن أعفيناه من العمل أسأنا إليه، ولكننا نترك له واجبه وننهض بواجبنا، وواجب كل جيل من اجيال الأمم ان يبقى لمن بعده أمانة ولا يبقى له قيودا من عمله أو أثقالا من جرائر إهماله وتفريطه، وإذا استطعنا ان نقول للأجيال المقبلة إن دينكم لنا أعظم من ديننا لأسلافنا فنحن الأوفياء وهم الرابحون.

عباس محمود العقاد

محتويات الكتاب

صدر للمؤلف

- الإتجاه القومى فى الرواية
- أحمد بهاءالدين ـ سيرة قومية
- مؤرخو الجزيرة العربية
- المؤثرات الفكرية في الثورة العرابية
-شهر زاد فى الفكر العربى الحديث ط٢
- الحصار : مسرح شعرى.
- الخروج من المدينة: مسرح شعرى
-اللاعب: مسرح شعرى
-الوداع/ ترجمة آخر اشعار اراجون
-الشرقاوى متمردا
- اعترافات عبد الرحمن الشرقاوى
- طه حسين والسياسة
- تحولات طه حسين
- طه حسين وثورة يوليو
-المفكر والأمير« العلاقة بين طه حسين والسلطة ١٩/ ١٩٧٣»
-المسرح المصرى فى السبعينات «ج ١»
-المسرح المصرى فى الثمانينات « ج ٢» ط٢
- البنية الشعرية لفاروق شوشة
- المثقفون وعبد الناصر ط٢
- زكى نجيب محمود « سلسلة نقاد الأدب»
-الخروج من التاريخ «دراسة فى مدن الملح»
- نجيب محفوظ ـ الثورة والتصوف ١٩٩٣
- نقد الذات فى الرواية الفسطينية
- الجبرتى والغرب « دراسة حضارية مقارنة»
-مثقفون وجواسيس ـ دراسة فى أزمة الخليج
- نقاد الرواية فى نهاية القر ن العشرين فى مصر : ت .ط
- الدور الأمريكى فى اغتيال حسن البنا: ت.ط
- الجات والتبعية الثقافية. مركز الحضارة العربية
- عمالقة وعواصف: جهاد للنشر والتوزيع
- الغيم والمطر ـ الرواية الفلسطيبية من النكبة إلى الانتفاضة، ت.ط
- حقيقة الحملة الفرنسية، مركز الحضارة العربية

رقم الإيداع: ٩٨/٧٥٧٨
الترقيم الدولى: I.S.B.N
977 - 5684 - 114 - 5

هذا الكتاب

عدد من الشخصيات المعروفة تحاول أن تجيب عن عدد من الأسئلة المعلقة، أو قل، هى أسئلة قديمة لكنها غير معروفة ، ولأنها معلقة ، وغير معروفة ، فإنها ستظل فى مقام الأسئلة التى تحتاج إلى جهد ودأب لم نحاولهما من قبل

إذن نحن أمام الوضوح فى الأسماء وأما الغموض فيما نعرفه عنها

وهى لهذا تطرح أمامنا عددا كبيرا من الأسئلة ، منها:

– ماذا نعرف ؟ –ولماذا نعرف؟

ومجرد طرح هذه الأسئلة يثير أمامنا مفارقة حادة

إنها مفارقة لم نتعود عليها بالنسبة إلى عديد من شخصيات المثقفين فى مصر. وهو يحتاج إلى توضيح أكثر

فكلنا يعرف ، أو يعتقد أنه يعرف شيئا أوأشياء عن جمال الدين الأفغانى أو عبد الله النديم أو طه حسين.. أوغيرهم .

وكلها أسماء شائعة وتملأ الدنيا - كما قال المتنبى

والأجدر أن نقول : ومن منا لايعرف الأفغانى والنديم والحكيم وطه حسين ..

الواقع ، أننا رغم هذا كله لانعرف الكثير عنهم

وربما يكون هذا هو السبب الذى يجعلنا الآن نحاول توجيه الاتهام لهذا المفكر أو ذاك ، أو نجد من ينتمى إلى التيار الأصولى أو العقيدى من يتهم التيار الليبرالى أواليسارى .

وربما يكون السبب – كذلك – فى هذه المعارك الوهمية بين مثقفينا، التى تتخذ أشكالا لا تمت بصلة إلى تقاليد المعرفة ، كما ترتبط بأى شكل بطبيعة القضايا الملحة التى نعيش فيها وتحتاج منا للمعرفة لاالتسرع وعدم الفهم الكافى ..

الناشر